تفسير سورة القصص

آياتها ثمان وثمانون آية ، وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء . وأخرج ابن الضريس وابن النجار وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة القصص بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثل ذلك : قال القرطبى : قال ابن عباس وقتادة : إنها نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة وقت هجرة رسول الله ﷺ وهى قوله عزّ وجلّ : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾ وقال مقاتل : فيها من المدنى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ لا نبتغى الجاهلين ﴾ (١) . وأخرج أحمد والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : سنده جيد عن معدى كرب قال : أتينا عبد الله بن مسعود فسألناه أن يقرأ علينا : ﴿ طسم ﴾ المائتين ، فقال : ما هى معى ، ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرت ، فأتيت خبابا فقلت : كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ طسم ﴾ أو ﴿ طس ﴾ ؟ فقال : كلّ كان رسول الله ﷺ يقرأه (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ

---

(١) القرطبى ٧/ ٤٩٦٣ .

(٢) أحمد ١/ ٤١٩ والطبرانى (٣٦١٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٧ : « رجاله ثقات » وصححه الشيخ شاكر فى تعليقه على المسند ٦/ ٣٩٧٩ .

الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ .

الكلام فى فاتحة هذه السورة قد مرّ فى فاتحة الشعراء وغيرها فلا نعيده ، وكذلك مرّ الكلام على قوله : ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ فاسم الإشارة مبتدأ خبره ما بعده ، أو خبر مبتدأ محذوف و﴿ **آيات** ﴾ بدل من اسم الإشارة ، ويجوز أن يكون تلك فى موضع نصب بـ ﴿ **نتلو**﴾ والمبين : المشتمل على بيان الحق من الباطل . قال الزجاج : مبين الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، وهو من أبان بمعنى : أظهر ﴿ **نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون** ﴾ أى نوحى إليك من خبرهما ملتبسا بالحق ، وخص المؤمنين ؛ لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن . وقيل : إن مفعول نتلو محذوف ، والتقدير : نتلو عليك شيئا من نبئهما ، ويجوز أن تكون «من» مزيدة على رأى الأخفش ، أى نتلو عليك نبأ موسى وفرعون، والأولى أن تكون للبيان على تقدير المفعول كما ذكر، أو للتبعيض، ولا ملجئ للحكم بزيادتها، والحق : الصدق . وجملة : ﴿ **إن فرعون علا فى الأرض** ﴾ وما بعدها مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ . قال المفسرون: معنى ﴿ **علا** ﴾ : تكبر وتجبر بسلطانه . والمراد بالأرض : أرض مصر . وقيل : معنى ﴿ **علا** ﴾ : ادعى الربوبية . وقيل : علا عن عبادة ربه ﴿ **وجعل أهلها شيعا** ﴾ أى فرقا وأصنافا فى خدمته يشايعونه على ما يريد ويطيعونه ، وجملة : ﴿ **يستضعف طائفة منهم** ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقا وأصنافا ، ويجوز أن تكون فى محلّ نصب على الحال من فاعل جعل ، أى جعلهم شيعا حال كونهم مستضعفا طائفة منهم، ويجوز أن تكون صفة لطائفة ، والطائفة هم بنو إسرائيل ، وجملة : ﴿ **يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم** ﴾ بدل من الجملة الأولى ، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان ، أو حالا ، أو صفة كالتى قبلها على تقدير عدم كونها بدلا منها ، وإنما كان فرعون يذبح أبناءهم ويترك النساء ؛ لأن المنجمين فى ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بنى إسرائيل . قال الزجاج : والعجب من حمق فرعون ، فإن الكاهن الذى أخبره بذلك إن كان صادقا عنده فما ينفع القتل ، وإن كان كاذبا فلا معنى للقتل ﴿ **إنه كان من المفسدين** ﴾ فى الأرض بالمعاصى والتجبر ، وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد .

﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض** ﴾ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية. واستحضارصورتها، أى نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم . والمراد بهؤلاء :بنو إسرائيل ، والواو فى ﴿ **ونريد** ﴾ للعطف على جملة : ﴿ **إن فرعون علا** ﴾ وإن كانت الجملة المعطوف عليها اسمية ؛ لأن بينهما تناسبا من حيث إن كل واحدة منهما للتفسير والبيان ، ويجوز أن تكون حالا من فاعل ﴿ **يستضعف** ﴾ بتقدير مبتدأ ، أى ونحن نريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ، كما فى قول الشاعر :

obeikandl.com

نجوت وأرهنهم ملكا

والأوّل أولى . ﴿ **ونجعلهم أئمة** ﴾ أى قادة فى الخير ودعاة إليه ، وولاة على الناس وملوكا فيهم ﴿ **ونجعلهم الوارثين** ﴾ لملك فرعون ومساكن القبط وأملاكهم ، فيكون ملك فرعون فيهم ويسكنون فى مساكنه ومساكن قومه ، وينتفعون بأملاكه وأملاكهم ﴿ **ونمكن لهم فى الأرض** ﴾ أى نجعلهم مقتدرين عليها وعلى أهلها مسلطين على ذلك يتصرّفون به كيف شاؤوا. قرأ الجمهور: ﴿ **نمكن** ﴾ بدون لام ، وقرأ الأعمش : « لنمكن » بلام العلة . ﴿ **ونرى فرعون وهامان وجنودهما** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿**نرى**﴾ بنون مضمومة وكسر الراء على أن الفاعل هو اللّه سبحانه. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : « ويرى » بفتح الياء التحتية والراء ، والفاعل فرعون . والقراءة الأولى ألصق بالسياق ؛ لأن قبلها نريد ونجعل ونمكن بالنون . وأجاز الفراء: « ويرى فرعون » بضم الياء التحتية وكسر الراء، أى ويرى اللّه فرعون، ومعنى ﴿**منهم**﴾: من أولئك المستضعفين ﴿**ما كانوا يحذرون**﴾ الموصول هو المفعول الثانى على القراءة الأولى، والمفعول الأوّل على القراءة الثانية، والمعنى: أن اللّه يريهم ، أو يرون هم الذى كانوا يحذرون منه ويجتهدون فى دفعه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد المولود من بنى إسرائيل المستضعفين .

﴿ **وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه** ﴾ أى ألهمناها وقذفنا فى قلبها وليس ذلك هو الوحى الذى يوحى إلى الرسل . وقيل : كان ذلك رؤيا فى منامها . وقيل : كان ذلك بملك أرسله اللّه يعلمها بذلك . وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية ، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما فى الحديث الثابت فى الصحيحين وغيرهما (١) ، وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما فى الحديث الثابت فى الصحيح فلم يكن بذلك نبيا (٢). و« أن » فى ﴿ **أن أرضعيه** ﴾ هى المفسرة؛ لأن فى الوحى معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى بأن أرضعيه ، وقرأ عمر بن عبد العزيز بكسر نون أن ، ووصل همزة أرضعيه فالكسر لالتقاء الساكنين ، وحذف همزة الوصل على غير القياس ﴿ **فإذا خفت عليه** ﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه ﴿ **فألقيه فى اليمّ** ﴾ وهو بحر النيل، وقد تقدّم بيان الكيفية التى ألقته فى اليمّ عليها فى سورة طه ﴿ **ولا تخافى ولا تحزنى** ﴾ أى لا تخافى عليه الغرق أو الضيعة ، ولا تحزنى لفراقه ﴿ **إنا رادّوه إليك** ﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ﴿ **وجاعلوه من المرسلين** ﴾ الذين نرسلهم إلى العباد .

والفاء فى قوله : ﴿ **فالتقطه آل فرعون** ﴾ هى الفصيحة ، والالتقاط : إصابة الشىء من غير طلب . والمراد بآل فرعون: هم الذين أخذوا التابوت الذى فيه موسى من البحر ، وفى

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٤٦٤) ومسلم فى الزهد (٢٩٦٤/ ١٠) والبيهقى ٧/ ٢١٩كلهم عن أبى هريرة .
(٢) مسلم فى الحج (١٢٢٦/ ١٦٧) والدارمى ٢/ ٣٥ كلاهما عن مطرف عن عمران بن حصين .

الكلام حذف ، والتقدير : فألقته فى اليمّ بعد ما جعلته فى التابوت فالتقطه من وجده من آل فرعون ، واللام فى ﴿ **ليكون لهم عدوّا وحزنا** ﴾ لام العاقبة ، ووجه ذلك : أنهم إنما أخذوه ليكون لهم ولدا وقرّة عين لا ليكون عدوّا فكان عاقبة ذلك أنه كان لهم عدوّا وحزنا ، ولما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم وثمرة له شبهت بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله ، ومن هذا قول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب

وقول الآخر :

وللمنايا تربى كل مرضعة ودورنا لخراب الدهر نبنيها

قرأ الجمهور : ﴿ **وحزنا** ﴾ بفتح الحاء والزاى ، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : «وحزنا » بضم الحاء وسكون الزاى ، واختار القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم ، وهما لغتان كالعَدَم والعُدْم ، والرَّشَد والرُّشْد ، والسَّقَم والسُّقْم ، وجملة : ﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ لتعليل ما قبلها ، أو للاعتراض لقصد التأكيد ؛ ومعنى ﴿ **خاطئين** ﴾ : عاصين آثمين فى كل أفعالهم وأقوالهم ، وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب ، وقرئ : « خاطين » بياء من دون همزة فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور ولكنها خففت بحذف الهمزة ، ويحتمل أن تكون من خطا يخطو ، أى تجاوز الصواب .

﴿ **وقالت امرأة فرعون قرّة عين لى ولك** ﴾ أى قالت امرأة فرعون لفرعون، وارتفاع ﴿**قرّة**﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، قاله الكسائى وغيره، وقيل: على أنه مبتدأ وخبره: ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ قاله الزجاج ، والأوّل أولى . وكان قولها لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل إليها وأخرجته من التابوت وخاطبت بقولها : ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ فرعون ومن عنده من قومه، أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له . وقرأ عبد اللّه بن مسعود : « وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرّة عين لى ولك» ويجوز نصب « قرة » بقوله : ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ على الاشتغال . وقيل : إنها قالت : لا تقتلوه فإن اللّه أتى به من أرض بعيدة وليس من بنى إسرائيل . ثم عللت ما قالته بالترجى منها لحصول النفع منه لهم ، أو التبنى له فقالت : ﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾ فنصيب منه خيرا ﴿ **أو نتخذه ولدا** ﴾ وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها ، وجملة : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى وهم لا يشعرون أنهم على خطأ فى التقاطه ، ولا يشعرون أن هلاكهم على يده، فتكون حالا من آل فرعون ، وهى من كلام اللّه سبحانه . وقيل : هى من كلام المرأة ، أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه وهم لا يشعرون ، قاله الكلبى ، وهو بعيد جدا . وقد حكى الفراء عن السدّى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن قوله : ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ من كلام فرعون واعترضه بكلام يرجع إلى اللفظ ، ويكفى فى ردّه ضعف إسناده .

obeikandl.com

﴿ **وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا** ﴾ قال المفسرون : معنى ذلك أنه فارغ من كل شيء إلا من أمر موسى كأنها لم تهتم بشيء سواه . قال أبو عبيدة : خاليا من ذكر كل شيء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . وقال الحسن وابن إسحاق وابن زيد : فارغا مما أوحى إليها من قوله : ﴿ **ولا تخافى ولا تحزنى** ﴾ وذلك لما سوّل الشيطان لها من غرقه وهلاكه . وقال الأخفش : فارغا من الخوف والغمّ لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدّم من الوحى إليها ، وروى مثله عن أبى عبيدة أيضا. وقال الكسائى : ناسيا ذاهلا. وقال العلاء بن زياد: نافرا. وقال سعيد بن جبير : والها ، كادت تقول : وا ابناه ؛ من شدّة الجزع . وقال مقاتل : كادت تصيح شفقة عليه من الغرق . وقيل: المعنى : أنها لما سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش . قال النحاس : وأصحّ هذه الأقوال الأوّل ، والذين قالوه أعلم بكتاب اللّه ، فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى ، وقول من قال : فارغا من الغمّ غلط قبيح لأن بعده : ﴿ **إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ وقرأ فضالة بن عبيد الأنصارى ومحمد ابن السميقع وأبو العالية وابن محيصن : « فزعا » بالفاء والزاى والعين المهملة من الفزع ، أى خائفا وجلا . وقرأ ابن عباس : « قرعا » بالقاف المفتوحة والراء المهملة المكسورة والعين المهملة من قرع رأسه : إذا انحسر شعره ، ومعنى ﴿ **وأصبح** ﴾ : وصار ،كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء فى أمر رشيد وأصبحت المدينة للوليد

﴿ **إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ « أن » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، أى إنها كادت لتظهر أمر موسى وأنه ابنها من فرط ما دهمها من الدهش والخوف والحزن ، من بدا يبدو: إذا ظهر ، وأبدى يبدى: إذا أظهر ، وقيل: الضمير فى ﴿ **به** ﴾ عائد إلى الوحى الذى أوحى إليها ، والأوّل أولى . وقال الفراء : إن كانت لتبدى باسمه لضيق صدرها لولا أن ربطنا على قلبها. قال الزجاج: ومعنى الربط على القلب: إلهام الصبر وتقويته ، وجواب لولا محذوف، أى لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت، واللام فى: ﴿ **لتكون من المؤمنين** ﴾ متعلق بـ ﴿ **ربطنا** ﴾ والمعنى:ربطنا على قلبها لتكون من المصدّقين بوعد اللّه وهو قوله: ﴿ **إنا رادّوه إليك** ﴾ قيل : والباء فى : ﴿ **لتبدى به** ﴾ زائدة للتأكيد . والمعنى : لتبديه ، كما تقول : أخذت الحبل وبالحبل . وقيل : المعنى : لتبدى القول به ﴿ **وقالت لأخته قصيه** ﴾ أى قالت أمّ موسى لأخت موسى وهى مريم : قصيه ، أى تتبعى أثره ، واعرفى خبره ، وانظرى أين وقع وإلى من صار ؟ يقال : قصصت الشيء : إذا اتبعت أثره متعرّفا لحاله ﴿ **فبصرت به عن جنب** ﴾ أى أبصرته عن بعد ، وأصله عن مكان جنب ، ومنه الأجنبى . قال الشاعر :

فلا تحرمينى نائلا عن جنابة فإنى امرؤ وسط الديار غريب

وقيل : المراد بقوله : ﴿ **عن جنب** ﴾ : عن جانب ، والمعنى : أنها أبصرت إليه ستجانفة مخاتلة ، ويؤيد ذلك قراءة النعمان بن سالم عن جانب ، ومحل : ﴿ **عن جنب** ﴾ النصب على

الحال إما من الفاعل ، أى بصرت به مستخفية كائنة عن جنب ، وإما من المجرور ، أى بعيدا منها . قرأ الجمهور : ﴿ **بصرت** ﴾ به بفتح الباء وضم الصاد ، وقرأ قتادة بفتح الصاد وقرأ عيسى بن عمر بكسرها . قال المبرّد : أبصرته وبصرت به بمعنى ، وقرأ الجمهور: ﴿ **عن جنب** ﴾ بضمتين ، وقرأ قتادة والحسن والأعرج وزيد بن علىّ بفتح الجيم وسكون النون ، وروى عن قتادة أيضا أنه قرأ بفتحهما . وروى عن الحسن أيضا أنه قرأ بضم الجيم وسكون النون . وقال أبو عمرو بن العلاء : إن معنى ﴿ **عن جنب** ﴾ : عن شوق. قال : وهى لغة جذام يقولون : جنبت إليك ، أى اشتقت إليك ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ أنها تقصه وتتبع خبره وأنها أخته .

﴿ **وحرّمنا عليه المراضع** ﴾ المراضع جمع مرضع ، أى منعناه أن يرضع من المرضعات . وقيل : المراضع جمع مرضع بفتح الضاد ، وهو الرضاع أو موضعه ، وهو الثدى ، ومعنى ﴿**من قبل** ﴾ : من قبل أن نردّه إلى أمه ، أو من قبل أن تأتيه أمه، أو من قبل قصها لأثره ، وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه ، فلم يرضع من واحدة منهنّ فعند ذلك ﴿**قالت** ﴾ أى أخته لما رأت امتناعه من الرضاع : ﴿ **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم** ﴾ أى يضمنون لكم القيام به وإرضاعه ﴿ **وهم له ناصحون** ﴾ أى مشفقون عليه لا يقصرون فى إرضاعه وتربيته . وفى الكلام حذف ، والتقدير: فقالوا لها : من هم ؟ فقالت : أمى ، فقيل لها : وهل لأمك لبن ؟ قالت : نعم لبن أخى هارون : فدلتهم على أمّ موسى فدفعوه إليها ، فقبل ثديها ، ورضع منه ، وذلك معنى قوله سبحانه : ﴿ **فرددناه إلى أمه كى تقرّ عينها** ﴾ بولدها ﴿**ولا تحزن** ﴾ على فراقه ﴿ **ولتعلم أن وعد اللّه** ﴾ أى جميع وعده ، ومن جملة ذلك ما وعدها بقوله: ﴿ **إنا رادّوه إليك** ﴾. ﴿ **حق** ﴾ لا خلف فيه واقع لا محالة ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ أى أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك ، بل كانوا فى غفلة عن القدر وسرّ القضاء ، أو أكثر الناس لايعلمون بذلك أو لا يعلمون أن اللّه وعدها بأن يردّه إليها .

وقد أخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿**وجعل أهلها شيعا**﴾ قال : فرّق بينهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة : ﴿ **وجعل أهلها شيعا** ﴾ قال : يستعبد طائفة منهم ويدع طائفة ، ويقتل طائفة ويستحيى طائفة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة** ﴾ قال : يوسف وولده . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض** ﴾ قال : هم بنو إسرائيل ﴿ **ونجعلهم أئمة** ﴾ أى ولاة الأمر ﴿ **ونجعلهم الوارثين** ﴾ أى الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه ﴿ **ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون** ﴾ قال : ما كان القوم حذروه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأوحينا إلى أمّ موسى** ﴾ أى ألهمناها الذى صنعت بموسى . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش قال : قال ابن عباس فى قوله :

﴿ **فإذا خفت عليه** ﴾ قال : أن يسمع جيرانك صوته . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا** ﴾ قال : فرغ من ذكر كل شىء من أمر الدنيا إلا من ذكر موسى . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا** ﴾ قال : خاليا من كل شىء غير ذكر موسى. وفى قوله : ﴿ **إن كادت لتبدى به** ﴾ قال: تقول: يا ابناه . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿**وقالت لأخته قصيه** ﴾ أى اتبعى أثره ﴿ **فبصرت به عن جنب** ﴾ قال : عن جانب . وأخرج الطبرانى وابن عساكر عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : « أما شعرت أن الله زوّجنى مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وامرأة فرعون ؟ » قالت : هنيئا لك يا رسول الله. وأخرجه ابن عساكر عن ابن أبى روّاد مرفوعا بأطول من هذا ، وفى آخره أنها قالت : بالرفاء والبنين [1] . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وحرّمنا عليه المراضع من قبل** ﴾ قال : لا يؤتى بمرضع فيقبلها .

﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ**

---

(١) الطبرانى ٢٢/ ٤٥١ (١١٠٠) ولكنه عن أبى رواد لا عن أبى أمامة ، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٢٢١ : «منقطع الإسناد وفيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف » . وذكر الهيثمى ـ أيضًا ـ أن حديث أبى أمامة قيل للسيدة عائشة ، وفيه خالد بن يوسف السمتى وهو ضعيف .

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) .

قوله : ﴿ **ولما بلغ أشدّه** ﴾ قد تقدّم الكلام فى بلوغ الأشدّ فى الأنعام ، وقد قال ربيعة ومالك: هو الحلم لقوله تعالى: ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا ﴾ الآية [النساء: ٦] وأقصاه أربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد وسفيان الثورى وغيرهما. وقيل: الأشدّ: ما بين الثمانى عشرة إلى الثلاثين ، والاستواء :من الثلاثين إلى الأربعين ، وقيل : الاستواء هو بلوغ الأربعين ، وقيل : الاستواء : إشارة إلى كمال الخلقة. وقيل: هو بمعنى واحد، وهو ضعيف لأن العطف يشعر بالمغايرة ﴿ **آتيناه حكما وعلما** ﴾ الحكم : الحكمة على العموم . وقيل : النبوّة. وقيل : الفقه فى الدين . والعلم : الفهم ، قاله السدّى . وقال مجاهد : الفقه . وقال ابن إسحاق : العلم بدينه ودين آبائه . وقيل : كان هذا قبل النبوّة . وقد تقدّم بيان معنى ذلك فى البقرة ﴿ **وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الذى جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله وألقت ولدها فى البحر وصدّقت بوعد الله نجزى المحسنين على إحسانهم ، والمراد العموم.

﴿ **ودخل المدينة** ﴾ أى ودخل موسى مدينة مصر الكبرى . وقيل : مدينة غيرها من مدائن مصر ، ومحل قوله: ﴿ **على حين غفلة من أهلها** ﴾ النصب على الحال : إما من الفاعل ، أى مستخفيا ، وإما من المفعول . قيل : لما عرف موسى ما هو عليه من الحق فى دينه عاب ما عليه قوم فرعون وفشا ذلك منه ، فأخافوه فخافهم ، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفيا . قيل: كان دخوله بين العشاء والعتمة ، وقيل : وقت القائلة . قال الضحاك : طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها فدخل على حين علم منهم ، فكان منه ما حكى الله سبحانه بقوله : ﴿ **فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته** ﴾ أى ممن شايعه على دينه، وهم بنو إسرائيل ﴿ **وهذا من عدوّه** ﴾ أى من المعادين له على دينه وهم قوم فرعون ﴿ **فاستغاثه الذى من شيعته** ﴾ أى طلب منه أن ينصره ويعينه على خصمه ﴿ **على الذى من عدوّه** ﴾ فأغاثه؛ لأن نصر المظلوم واجب فى جميع الملل . قيل : أراد القبطى أن يسخر الإسرائيلى ليحمل حطبا لمطبخ فرعون فأبى عليه واستغاث بموسى ﴿ **فوكزه موسى** ﴾ الوكز : الضرب بجمع الكف ، وهكذا اللكز واللهز . وقيل : اللكز على اللحى ، والوكز على القلب . وقيل : ضربه بعصاه. وقرأ ابن مسعود : « فلكزه » وحكى الثعلبى أن فى مصحف عثمان : « فنكزه » بالنون . قال الأصمعى : « نكزه » بالنون : ضربه ودفعه . قال الجوهرى : اللكز : الضرب على الصدر. وقال أبو زيد : فى جميع الجسد ،يعنى أنه يقال له لكز . واللهز: الضرب بجميع اليدين فى الصدر ، ومثله عن أبى عبيدة ﴿ **فقضى عليه** ﴾ أى قتله ، وكل شىء أتيت عليه وفرغت منه : فقد قضيت عليه ، ومنه قول الشاعر :

قد عضه فقضى عليه الأشجع

قيل : لم يقصد موسى قتل القبطى ، وإنما قصد دفعه فأتى ذلك على نفسه ، ولهذا قال : ﴿ **هذا من عمل الشيطان** ﴾ وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل ؛ لأنه لم يكن إذ ذاك مأمورا بقتل الكفار . وقيل: إن تلك الحالة حالة كفّ عن القتال لكونه مأمونا عندهم ، فلم يكن له أن يغتالهم . ثم وصف الشيطان بقوله : ﴿ **إنه عدوّ مضل مبين** ﴾ أى عدوّ للإنسان يسعى فى إضلاله ، ظاهر العداوة والإضلال . وقيل : إن الإشارة بقوله :﴿ **هذا** ﴾ إلى عمل المقتول لكونه كافرا مخالفا لما يريده اللّه . وقيل : إنه إشارة إلى المقتول نفسه ، يعنى أنه من جند الشيطان وحزبه . ثم طلب من اللّه سبحانه أن يغفر له ما وقع منه : ﴿ **قال ربّ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر** ﴾ اللّه ﴿ **له** ﴾ ذلك ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ ووجه استغفاره : أنه لم يكن لنبىّ أن يقتل حتى يؤمر . وقيل : إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين ، أو أراد إنى ظلمت نفسى بقتل هذا الكافر ؛ لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلنى به ، ومعنى فاغفر لى : فاستر ذلك علىّ لا تطلع عليه فرعون ، وهذا خلاف الظاهر فإن موسى عليه السلام ما زال نادما على ذلك خائفا من العقوبة بسببه، حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول: إنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها ، كما ثبت ذلك فى حديث الشفاعة الصحيح [1] . وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوّة . وقيل : كان ذلك قبل بلوغه سنّ التكليف وإنه كان إذ ذاك فى اثنتى عشرة سنة ، وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء ولا شك أنهم معصومون من الكبائر ، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة ؛ لأن الوكزة فى الغالب لا تقتل .

ثم لما أجاب اللّه سؤاله وغفر له ما طلب منه مغفرته ، قال : ﴿ **ربّ بما أنعمت علىّ** ﴾ هذه الباء يجوز أن تكون باء القسم والجواب مقدر، أى أقسم بإنعامك علىّ لأتوبنّ وتكون جملة: ﴿ **فلن أكون ظهيرا للمجرمين** ﴾ كالتفسير للجواب وكأنه أقسم بما أنعم اللّه عليه أن لا يظاهر مجرما . ويجوز أن تكون هذه الباء هى باء السببية متعلقة بمحذوف ، أى اعصمنى بسبب ما أنعمت به علىّ ، ويكون قوله : ﴿ **فلن أكون ظهيرا** ﴾ مترتبا عليه ، ويكون فى ذلك استعطاف للّه تعالى وتوصل إلى إنعامه بإنعامه ، و « ما » فى قوله : ﴿ **بما أنعمت** ﴾ إما موصولة أو مصدرية ، والمراد بما أنعم به عليه : هو ما آتاه من الحكم والعلم أو بالمغفرة أو بالجميع ، وأراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون والانتظام فى جملته فى ظاهر الأمر، أو مظاهرته على ما فيه إثم. قال الكسائى والفراء : ليس قوله : ﴿ **فلن أكون ظهيرا للمجرمين** ﴾ خبرا بل هو دعاء ، أى فلا تجعلنى يا رب ظهيرا لهم. قال الكسائى: وفى قراءة عبد اللّه: « فلا تجعلنى يا ربّ ظهيرا

---

(١) أحمد ٢/ ٤٣٥ ، والبخارى فى التفسير (٤٧١٢) ومسلم فى الإيمان (١٩٤/ ٣٢٧) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٣٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣٠٦) وابن ماجه مختصرا فى الأطعمة (٣٣٠٧) كلهم من طريق أبى حيان التيمى عن أبى زرعة عن أبى هريرة به .

للمجرمين » وقال الفراء : المعنى : اللهم فلن أكون ظهيرا للمجرمين . وقال النحاس : إن جعله من باب الخبر أوفى وأشبه بنسق الكلام .

﴿ **فأصبح فى المدينة خائفا يترقب** ﴾ أى دخل فى وقت الصباح فى المدينة التى قتل فيها القبطى ، و ﴿ **خائفا** ﴾ خبر ﴿ **أصبح** ﴾ ويجوز أن يكون حالا ، والخبر : ﴿ **فى المدينة** ﴾ و﴿ **يترقب** ﴾ يجوز أن يكون خبرا ثانيا ، وأن يكون حالا ثانية ، وأن يكون بدلا من ﴿ **خائفا** ﴾ ومفعول ﴿ **يترقب** ﴾ محذوف ، والمعنى : يترقب المكروه أو يترقب الفرح ﴿ **فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه** ﴾ إذا هى الفجائية والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **يستصرخه** ﴾ أى فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى استغاثه بالأمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره ويظلمه كما أراد القبطى الذى قد قتله موسى بالأمس ، والاستصراخ : الاستغاثة ، وهو من الصراخ ، وذلك أن المستغيث يصوّت ويصرخ فى طلب الغوث ، ومنه قول الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصُّراخُ له قرع الظنابيب

﴿ **قال له موسى إنك لغوىّ مبين** ﴾ أى بين الغواية ، وذلك أنك تقاتل من لا تقدر على مقاتلته ولا تطيقه . وقيل : إنما قال له هذه المقالة ؛ لأنه تسبب بالأمس لقتل رجل يريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر . ﴿ **فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدوّ لهما** ﴾ أى يبطش بالقبطى الذى هو عدوّ لموسى وللإسرائيلى ؛ حيث لم يكن على دينهما . وقد تقدّم معنى يبطش واختلاف القراء فيه . ﴿ **قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس** ﴾ القائل هو الإسرائيلى لما سمع موسى يقول له : ﴿ **إنك لغوّ مبين** ﴾ ورآه يريد أن يبطش بالقبطى ظن أنه يريد أن يبطش به، فقال لموسى : ﴿ **أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس** ﴾ فلما سمع القبطى ذلك أفشاه ، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذى قتل القبطى بالأمس حتى أفشى عليه الإسرائيلى ، هكذا قال جمهور المفسرين . وقيل : إن القائل : ﴿ **أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس** ﴾ هو القبطى ، وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلى ، وهذا هو الظاهر، وقد سبق ذكر القبطى قبل هذا بلا فصل ؛ لأنه هو المراد بقوله عدوّ لهما، ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم عنه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرّة الأولى ، والمرّة الأخرى هو الذى أفشى عليه، وأيضا إن قوله : ﴿ **إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض** ﴾ لا يليق صدور مثله إلا من كافر، و« إن» فى قوله : ﴿ **إن تريد** ﴾ هى النافية ، أى ما تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض . قال الزجاج : الجبار فى اللغة : الذى لا يتواضع لأمر اللّه ، والقاتل بغير حق جبار . وقيل : الجبار : الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل ، ولا ينظر فى العواقب ، ولا يدفع بالتى هى أحسن ﴿ **وما تريد أن تكون من المصلحين** ﴾ أى الذين يصلحون بين الناس .

﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى** ﴾ قيل : المراد بهذا الرجل : حزقيل وهو مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم موسى . وقيل : اسمه شمعون . وقيل : طالوت . وقيل : شمعان .

والمراد بأقصى المدينة: آخرها وأبعدها، و﴿ **يسعى** ﴾ يجوز أن يكون فى محل رفع صفة لرجل ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال ؛ لأن لفظ رجل وإن كان نكرة فقد تخصص بقوله : من أقصى المدينة ﴿ **قال يا موسى إن الملأ يأتمرون** [١] **بك ليقتلوك** ﴾ أى يتشاورون فى قتلك ويتآمرون بسببك . قال الزجاج : يأمر بعضهم بعضا بقتلك . وقال أبو عبيد : يتشاورون فيك ليقتلوك: يعنى أشراف قوم فرعون. قال الأزهرى: ائتمر القوم وتآمروا ، أى أمر بعضهم بعضا ، نظيره قوله: ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾ [الطلاق : ٦] . قال النمر بن تولب [٢] :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة وفى كل حادثة يؤتمر

﴿ **فاخرج إنى لك من الناصحين** ﴾ فى الأمر بالخروج، واللام للبيان ؛ لأن معمول المجرور لا يتقدم عليه . ﴿ **فخرج منها خائفا يترقب** ﴾ فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفا من الظالمين مترقبا لحوقهم به وإدراكهم له. ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلا : ﴿ **رب نجنى من القوم الظالمين** ﴾ أى خلصنى من القوم الكافرين وادفعهم عنى ، وخل بينى وبينهم . ﴿ **ولما توجه تلقاء مدين** ﴾ أى نحو مدين قاصدا لها . قال الزجاج : أى سلك فى الطريق الذى تلقاء مدين فيها . انتهى . يقال : داره تلقاء دار فلان ، وأصله من اللقاء . ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون ، ولهذا خرج إليها ﴿ **قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل** ﴾ أى يرشدنى نحو الطريق المستوية إلى مدين .

﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ أى وصل إليه ، وهو الماء الذى يستقون منه ﴿ **وجد عليه أمة من الناس يسقون** ﴾ أى وجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون مواشيهم ، ولفظ الورود قد يطلق على الدخول فى المورد ، وقد يطلق على البلوغ إليه وإن لم يدخل فيه ، وهو المراد هنا ، ومنه قول زهير :

فلما وردنا الماء زرقا جمامه

وقد تقدم تحقيق معنى الورود فى قوله: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : ٧١] وقيل : مدين : اسم للقبيلة لا للقرية، وهى غير منصرفة على كلا التقديرين . ﴿ **ووجد من دونهم** ﴾ أى من دون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التى جاء منها . وقيل : معناه : فى موضع أسفل منهم ﴿ **امرأتين تذودان** ﴾ أى تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس ويخلوا بينهما وبين الماء ، ومعنى الذود : الدفع والحبس ، ومنه قول الشاعر :

أبيت على باب القوافى كأنما أذود بها سربا من الوحش نزّعا

---

(١) فى المطبوعة : « يأتمرن » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) شاعر مخضرم أدرك الإسلام وهو كبير السن ، وروى حديثا وعمر طويلا حتى أنكر عقله وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس لجودة شعره. الإصابة ٣/ ٥٧٣ .

أى أحبس وأمنع ، وورد الذود بمعنى الطرد ، ومنه قول الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم   فما تدرى بأى عصا تذود

أى تطرد . ﴿ **قال ما خطبكما** ﴾ أى قال موسى للمرأتين : ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس ؟ والخطب : الشأن . قيل : وإنما يقال : ما خطبك لمصاب ، أو مضطهد ، أو لمن يأتى بمنكر ؟ ﴿ **قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء** ﴾ أى إن عادتنا التأنى حتى يصدر الناس عن الماء وينصرفوا منه حذرا من مخالطتهم ، أو عجزا عن السقى معهم . قرأ الجمهور: ﴿ **يصدر** ﴾ بضم الياء وكسر الدال مضارع أصدر المتعدّى بالهمزة . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء وضم الدال من صدر يصدر لازما ، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف ، أى يرجعون مواشيهم ، والرعاء جمع راع . قرأ الجمهور : ﴿ **الرعاء** ﴾ بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بفتحها ، قال أبو الفضل : هو مصدر أقيم مقام الصفة ، فلذلك استوى فيه الواحد والجمع . وقرئ : « الرعاء » بالضم اسم جمع . وقرأ طلحة بن مصرف : « نسقى » بضم النون من أسقى ﴿ **وأبونا شيخ كبير** ﴾ عالى السن ، وهذا من تمام كلامهما ، أى لا يقدر أن يسقى ماشيته من الكبر ، فلذلك احتجنا ونحن امرأتان ضعيفتان أن نسقى الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك . فلما سمع موسى كلامهما ﴿ **سقى لهما** ﴾ رحمة لهما، أى سقى أغنامهما لأجلهما « ثم » لما فرغ من السقى لهما ﴿ **تولى إلى الظل** ﴾ أى انصرف إليه ، فجلس فيه . قيل : كان هذا الظل ظل سمرة هنالك . ثم قال لما أصابه من الجهد والتعب مناديا لربه ﴿ **إنى لما أنزلت إلىّ من خير** ﴾ أىّ خير كان ﴿ **فقير** ﴾ أى محتاج إلى ذلك. قيل : أراد بذلك الطعام ، واللام فى: ﴿ **لما أنزلت** ﴾ معناها : إلى . قال الأخفش : يقال: هو فقير له وإليه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والمحاملى فى أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولما بلغ أشدّه** ﴾ قال : ثلاثا وثلاثين سنة ﴿**واستوى** ﴾ قال : أربعين سنة . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب المعمرين من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه قال : الأشد : ما بين الثمانى عشرة إلى الثلاثين ، والاستواء : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، فإذا زاد على الأربعين أخذ فى النقصان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها** ﴾ قال : نصف النهار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراسانى عنه أيضا فى الآية قال : ما بين المغرب والعشاء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿ **هذا من شيعته** ﴾ قال : إسرائيلى ﴿ **وهذا من عدّوه** ﴾ قال : قبطى ﴿ **فاستغاثه الذى من شيعته** ﴾ الإسرائيلى ﴿ **على الذى من عدّوه** ﴾ القبطى ﴿ **فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ قال : فمات ، قال : فكبر ذلك على موسى . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه** ﴾ قال : هو صاحب موسى الذى استنصره بالأمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : الذى استنصره هو الذى استصرخه . وأخرج ابن المنذر

عن الشعبى قال : من قتل رجلين فهو جبار ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لا يكون الرجل جبارا حتى يقتل نفسين .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : خرج موسى خائفا يترقب جائعا ليس معه زاد حتى انتهى إلى ماء مدين، و﴿ **عليه أمة من الناس يسقون** ﴾ وامرأتان جالستان بشياههما فسألهما: ﴿ **ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير** ﴾ قال : فهل قربكما ماء ؟ قالتا : لا ، إلا بئر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر ، قال : فانطلقا فأريانيها ، فانطلقتا معه ، فقال الصخرة بيده فنحاها ، ثم استقى لهما سجلا واحدا فسقى الغنم ، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ﴿ **ثم تولى إلى الظل فقال ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير** ﴾ فسمعتا ، قال : فرجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما ، فسألهما فأخبرتاه ، فقال لإحداهما : انطلقى فادعيه، فأتت ، فقالت: ﴿ **إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾ فمشت بين يديه ، فقال لها : امشى خلفى ؛ فإنى امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لى أن أرى منك ما حرّم اللّه علىّ ، وأرشدينى الطريق ﴿ **فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوّى الأمين** ﴾ قال لها أبوها : ما رأيت من قوّته وأمانته ؟ فأخبرته بالأمر الذى كان ، قالت : أما قوّته فإنه قلب الحجر وحده ، وكان لا يقلبه إلا النفر . وأما أمانته فقال : امشى خلفى وأرشدينى الطريق لأنى امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لى منك ما حرّمه اللّه .

قيل لابن عباس : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أبرهما وأوفاهما .

وأخرج الفريابى، وابن أبى شيبة فى المصنف ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال : إن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين ، قال : ما خطبكما ؟ فحدّثتاه ، فأتى الحجر ، فرفعه وحده ، ثم استقى فلم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم ، فرجعت المرأتان إلى أبيهما فحدّثتاه، وتولى موسى إلى الظلّ فقال: ﴿ **ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير** ﴾. قال: ﴿ **فجاءته إحداهما تمشى على استحياء** ﴾ واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء خرّاجة ولاجة ﴿ **قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا** ﴾ فقام معها موسى ، فقال لها : امشى خلفى وانعتى لى الطريق ، فإنى أكره أن يصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك ، فلما انتهى إلى أبيها قصّ عليه ، فقالت إحداهما: ﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوّى الأمين** ﴾ قال : يا بنية ما علمك بأمانته وقوّته ؟ قالت: أما قوّته فرفعه الحجر ولا يطيقه إلا عشرة رجال ، وأما أمانته فقال : امشى خلفى وانعتى لى الطريق ؛ فإنى أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك ، فزاده ذلك رغبة فيه ، فقال:

﴿ **إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ستجدنى إن شاء اللّه من الصالحين** ﴾ أى فى حسن الصحبة والوفاء بما قلت ﴿ **قال** ﴾ موسى : ﴿ **ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على** ﴾ قال :نعم ، قال : ﴿ **واللّه على ما نقول وكيل** ﴾ فزوّجه وأقام معه يكفيه ويعمل فى رعاية غنمه وما يحتاج إليه وزوجه صفورا وأختها شرفا ، وهما اللتان كانتا تذودان [١] . قال ابن كثير بعد إخراجه لطرق من هذا الحديث : إن إسناده صحيح [٢] . والسلفع من النساء : الجريئة السليطة .

وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ قال : ورد الماء حيث ورد وإنه لتتراءى خضرة البقل فى بطنه من الهزال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : خرج موسى من مصر إلى مدين وبينه وبينها ثمانى ليال ، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر، وخرج حافيا ، فما وصل إليها حتى وقع خفّ قدمه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : ﴿ **تذودان** ﴾ : تحبسان غنمهما حتى ينزع الناس ويخلو لهما البئر. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والضياء فى المختارة عنه أيضا قال : لقد قال موسى : ﴿ **ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير** ﴾ وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر إلى شقّ تمرة ولقد لصق بطنه بظهره من شدّة الجوع [٣] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ما سأل إلا الطعام . وأخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عنه أيضا قال: سأل فلقا من الخبز يشدّ بها صلبه من الجوع .

﴿ **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا**

---

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩١) وصححه الحاكم ٢/ ٤٠٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٢) ابن كثير ٥/ ٢٧٢ .　　(٣) ابن أبى شيبة (١٦١٤٧) .

obeikandl.com

وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **فجاءته إحداهما تمشى على استحياء** ﴾ فى الكلام حذف يدل عليه السياق . قال الزجاج : تقديره : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكانت عادتهما الإبطاء فى السقى ، فحدّثتاه بما كان من الرجل الذى سقى لهما ، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل : الصغرى، أن تدعوه له فجاءته. وذهب أكثر المفسرين إلى أنهما ابنتا شعيب. وقيل : هما ابنتا أخى شعيب ، وأن شعيبا كان قد مات . والأوّل أرجح ، وهو ظاهر القرآن . ومحلّ ﴿ **تمشى** ﴾ النصب على الحال من فاعل جاءت ، ﴿ **وعلى استحياء** ﴾ حال أخرى ، أى كائنة على استحياء حالتى المشى والمجىء فقط ، وجملة : ﴿ **قالت إن أبى يدعوك** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل : ماذا قالت له لما جاءته ؟ ﴿ **ليجزيك أجر ما سقيت لنا** ﴾ أى جزاء سقيك لنا ﴿ **فلما جاءه وقص عليه القصص** ﴾ القصص مصدر سمى به المفعول ، أى المقصوص يعنى أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطىّ إلى عند وصوله إلى ماء مدين ﴿ **قال** ﴾ شعيب : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ أى فرعون وأصحابه؛ لأن فرعون لا سلطان له على مدين ، وللرازى فى هذا الموضع إشكالات باردة جدّا لا تستحق أن تذكر فى تفسير كلام اللّه عزّ وجلّ ، والجواب عليها يظهر للمقصر فضلا عن الكامل ، وأشفّ ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقى ؟ ويجاب عنه : بأنه اتبع سنة اللّه فى إجابة دعوة نبىّ من أنبياء اللّه ، ولم تكن تلك الإجابة لأجل أخذ الأجر على هذا العمل ، ولهذا ورد أنه لما قدّم إليه الطعام قال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا.

﴿ **قالت إحداهما يا أبت استأجره** ﴾ القائلة هى التى جاءته ، أى استأجره ليرعى لنا الغنم ، وفيه دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة . وقد اتفق على جوازها ومشروعيتها جميع علماء الإسلام إلا الأصم فإنه عن سماع أدلتها أصم ، وجملة : ﴿ **إن خير من استأجرت القوىّ الأمين** ﴾ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى ، أى إنه حقيق باستئجارك له لكونه جامعا بين خصلتى القوّة والأمانة . وقد تقدّم فى المروىّ عن ابن عباس وعمر ؛ أن أباها سألها عن وصفها له بالقوة والأمانة فأجابته بما تقدّم قريبا . ﴿ **قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين** ﴾ فيه مشروعية عرض ولىّ المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة فى الإسلام، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى بكر وعثمان، والقصة معروفة [١]، وغير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة أيام النبوّة ، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على

---

(١) أحمد ١/ ١٢ والبخارى فى النكاح (٥١٢٢) والنسائى ٦/ ٨٣ والطبرانى ٢٣/ ١٨٦ (٣٠٢) .

رسول الله ﷺ . ﴿ **على أن تأجرنى ثمانى حجج** ﴾ أى على أن تكون أجيرا لى ثمانى سنين . قال الفراء : يقول : على أن تجعل ثوابى أن ترعى غنمى ثمانى سنين ، ومحل : ﴿ **على أن تأجرنى** ﴾ النصب على الحال ، وهو مضارع أجرته ، ومفعوله الثانى محذوف ، أى نفسك ، و﴿ **ثمانى حجج** ﴾ ظرف . قال المبرد : يقال : أجرت دارى ومملوكى ، غير ممدود وممدودا والأوّل أكثر ﴿ **فإن أتممت عشرا فمن عندك** ﴾ أى إن أتممت ما استأجرتك عليه من الرعى عشر سنين فمن عندك ، أى تفضلا منك لا إلزاما منى لك ، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام ، موكولا إلى المروءة ، ومحل ﴿ **فمن عندك** ﴾ الرفع على تقدير مبتدأ ، أى فهى من عندك ﴿ **وما أريد أن أشق عليك** ﴾ بإلزامك إتمام العشرة الأعوام ، واشتقاق المشقة من الشق ، أى شق ظنه نصفين ، فتارة يقول : أطيق ، وتارة يقول : لا أطيق . ثم رغبه فى قبول الإجارة فقال: ﴿ **ستجدنى إن شاء الله من الصالحين** ﴾ فى حسن الصحبة والوفاء . وقيل : أراد الصلاح على العموم ، فيدخل صلاح المعاملة فى تلك الإجارة تحت الآية دخولا أوليا ، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضا للأمر إلى توفيق الله ومعونته .

ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى فقال : ﴿ **ذلك بينى وبينك** ﴾ واسم الإشارة مبتدأ وخبره ما بعده، والإشارة إلى ما تعاقدا عليه ، وجملة : ﴿ **أيما الأجلين قضيت** ﴾ شرطية وجوابها : ﴿ **فلا عدوان علىّ** ﴾ والمراد بالأجلين : الثمانية الأعوام والعشرة الأعوام ، ومعنى ﴿**قضيت** ﴾ : وفيت به وأتممته ، والأجلين مخفوض بإضافة أىّ إليه ، وما زائدة . وقال ابن كيسان : « **ما** » فى موضع خفض بإضافة أىّ إليها ، و ﴿ **الأجلين** ﴾ بدل منها ، وقرأ الحسن : « أيما » بسكون الياء، وقرأ ابن مسعود: « أىّ الأجلين ما قضيت » ومعنى ﴿ **فلا عدوان علىّ** ﴾: فلا ظلم علىّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين ، أى كما لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام لا أطالب بالنقصان على العشرة . وقيل : المعنى : كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام ، وهذا أظهر . وأصل العدوان : تجاوز الحد فى غير ما يجب . قال المبرد : وقد علم موسى أنه لا عدوان عليه إذا أتمهما ، ولكنه جمعهما ليجعل الأوّل كالأتمّ فى الوفاء. قرأ الجمهور : ﴿ **عدوان** ﴾ بضم العين. وقرأ أبوحيوة بكسرها. ﴿ **والله على ما نقول وكيل** ﴾ أى على ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا ، شاهد وحفيظ ، فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شىء من ذلك . قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول شعيب ، والأوّل أولى لوقوعه فى جملة كلام موسى .

﴿ **فلما قضى موسى الأجل** ﴾ هو أكملهما وأوفاهما ، وهو العشرة الأعوام كما سيأتى آخر البحث ، والفاء فصيحة ﴿ **وسار بأهله** ﴾ إلى مصر. وفيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ﴿ **آنس من جانب الطور نارا** ﴾أى أبصر من الجهة التى تلى الطور نارا ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة طه مستوفى . ﴿ **قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر** ﴾ وهذا تقدّم تفسيره أيضا فى سورة طه وفى سورة النمل . ﴿ **أو جذوة** ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم،

وقرأ حمزة ويحيى بن وثاب بضمها ، وقرأ عاصم والسلمى وذرّ بن حبيش بفتحها . قال الجوهرى : الجذوة والجُذوة والجَذوة : الجمرة ، والجمع جِذَى وجُذى وجَذى . قال مجاهد : فى الآية أن الجذوة : قطعة من الجمر فى لغة جميع العرب . وقال أبو عبيدة : هى القطعة الغليظة من الخشب كأن فى طرفها نارا ولم يكن ، ومما يؤيد أن الجذوة الجمرة قول السلمى :

وبدلت بعد المسك والبان شقوة دخان الجذا فى رأس أشمط شاحب

﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ أى تستدفئون بالنار . ﴿ **فلما أتاها** ﴾ أى أتى النار التى أبصرها . وقيل : أتى الشجرة، والأوّل أولى لعدم تقدّم الذكر للشجر . ﴿ **نودى من شاطئ الواد الأيمن** ﴾ : « من » لابتداء الغاية، و﴿ **الأيمن** ﴾ صفة للشاطئ ، وهو من اليمن وهو البركة ، أو من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى، أى الذى يلى يمينه دون يساره، وشاطئ الوادى: طرفه . وكذا شطه . قال الراغب : وجمع الشاطئ : أشطاء ، وقوله : ﴿ **فى البقعة المباركة** ﴾ متعلق بـ ﴿ **نودى** ﴾ أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ، و﴿ **من الشجرة** ﴾ بدل اشتمال من شاطئ الواد ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ . وقال الجوهرى : يقول شاطئ الأودية ولا يجمع . قرأ الجمهور : ﴿ **فى البقعة** ﴾ بضم الباء ، وقرأ أبو سلمة والأشهب العقيلى بفتحها ، وهى لغة حكاها أبو زيد ﴿ **أن يا موسى إنى أنا الله** ﴾ : « أن » هى المفسرة ، ويجوز أن تكون هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، وجملة النداء مفسرة له ، والأوّل أولى . قرأ الجمهور بكسر همزة ﴿ **إنى** ﴾ على إضمار القول أو على تضمين النداء معناه. وقرئ بالفتح وهى قراءة ضعيفة.

وقوله : ﴿ **وأن ألق عصاك** ﴾ معطوف على ﴿ **أن يا موسى** ﴾ وقد تقدّم تفسير هذا وما بعده فى طه والنمل، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فألقاها فصارت ثعبانا فاهتزت ﴿ **فلما رآها تهتز كأنها جانّ** ﴾ فى سرعة حركتها مع عظم جسمها ﴿ **ولى مدبرا** ﴾ أى منهزما ، وانتصاب ﴿**مدبرا** ﴾ على الحال ، وقوله : ﴿ **ولم يعقب** ﴾ فى محل نصب أيضا على الحال ، أى لم يرجع ﴿ **يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** ﴾ قد تقدّم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده ، وكذلك قوله : ﴿ **اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك** ﴾ جناح الإنسان : عضده ، ويقال لليد كلها : جناح ، أى اضمم إليك يديك المبسوطتين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع ، وقد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات : الأولى : ﴿ **اسلك يدك فى جيبك** ﴾ . والثانية : ﴿ **واضمم إليك جناحك** ﴾ . والثالثة : ﴿ **وأدخل يدك فى جيبك** ﴾ . ويجوز أن يراد بالضم : التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا . ومعنى ﴿ **من الرهب** ﴾ : من أجل الرهب ، وهو الخوف . قرأ الجمهور : « الرهب » بفتح الراء والهاء ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم، وقرأ حفص والسلمى وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق بفتح الراء وإسكان الهاء . وقرأ ابن عامر والكوفيون **إلا** حفصا بضم الراء وإسكان الهاء . وقال الفراء : أراد بالجناح : عصاه ، وقال بعض أهل المعانى : الرهب: الكمّ بلغة حمير وبنى حنيفة.

قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول لآخر : أعطنى ما فى رهبك ، فسألته عن الرهب ، فقال: الكم . فعلى هذا يكون معناه : اضمم إليك يدك وأخرجها من الكمّ ﴿ **فذانك** ﴾ إشارة إلى العصا واليد ﴿ **برهانان من ربك إلى فرعون وملئه** ﴾ أى حجتان نيرتان ودليلان واضحان ، قرأ الجمهور : ﴿ **فذانك** ﴾ بتخفيف النون ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديدها ، قيل : والتشديد لغة قريش . وقرأ ابن مسعود وعيسى بن عمر وشبل وأبو نوفل بياء تحتية بعد نون مكسورة ، والياء بدل من إحدى النونين وهى لغة هذيل ، وقيل : لغة تميم ، وقوله : ﴿ **من ربك** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى كائنان منه ، وكذلك قوله : ﴿ **إلى فرعون وملئه** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى مرسلان، أو واصلان إليهم ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ : متجاوزين الحدّ فى الظلم ، خارجين عن الطاعة أبلغ خروج ، والجملة تعليل لما قبلها .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عبد اللّه بن أبى الهذيل عن عمر بن الخطاب فى قوله : ﴿ **تمشى على استحياء** ﴾ قال : جاءت مستترة بكمّ درعها على وجهها . وأخرجه ابن المنذر عن أبى الهذيل موقوفا عليه . وأخرج ابن عساكر عن أبى حازم قال: لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء ، فقال له شعيب : كل ، قال موسى : أعوذ باللّه ، قال : ولم ؟ ألست بجائع ؟ قال : بلى ، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضا عما سقيت لهما ، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبا ، قال : لا واللّه ولكنها عادتى وعادة آبائى ، نقرى الضيف ونطعم الطعام ، فجلس موسى فأكل . وأخرج ابن أبى حاتم عن مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قصّ عليه القصص . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود قال : كان صاحب موسى أثرون ابن أخى شعيب النبى . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الذى استأجر موسى يثربى صاحب مدين . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عنه قال : كان اسم ختن موسى يثربى. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : يقول أناس : إنه شعيب ، وليس بشعيب ، ولكنه سيد الماء يومئذ . وأخرج ابن ماجه والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن عتبة بن النذّر[1] السلمى قال : كنا عند رسول ﷺ فقرأ سورة : ﴿**طسم** ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى قال : « إن موسى أجر نفسه ثمانى سنين أو عشرا على عفة فرجه وطعام بطنه ، فلما وفى الأجل » قيل : يا رسول اللّه ، أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : «أبرّهما وأوفاهما، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت غنمه »[2] الحديث بطوله . وفى إسناده مسلمة بن على الخسنى الدمشقى

---

(١) فى المخطوطة : « ابن المنذر » ، والصحيح ابن النُذَّر بضم النون وتشديد الذال المفتوحة . الإصابة ٢/٤٥٦ (٥٤١٥) .

(٢) ابن ماجه فى الرهون (٢٤٤٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/٩١ :« رواه البزار والطبرانى وفى إسناده ابن لهيعة وفيه ضعف وقد يحسن حديثه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

البلاطى ضعفه الأئمة . وقد روى من وجه آخر وفيه نظر . وإسناده عند ابن أبى حاتم هكذا : حدثنا أبو زرعة عن يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدّثنى ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النذر [١] السلمى صاحب رسول الله ﷺ فذكره ، وابن لهيعة ضعيف ، وينظر فى بقية رجال السند . وأخرج ابن جرير عن أنس طرفا منه موقوفا عليه .

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبى شيبة فى المصنف، وعبد بن حميد والبخارى وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس ؛ أنه سئل : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل [٢] . وأخرج البزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه نحوه[٣] ، وقوله : « إن رسول الله إذا قال فعل » فيه نظر ؛ فإن موسى لم يقل إنه سيقضى أكثر الأجلين بل قال : ﴿ **أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ** ﴾ وقد روى عن رسول الله ﷺ أن موسى قضى أتمّ الأجلين من طرق [٤] . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن أبى ذرّ قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إذا سئلت أى الأجلين قضى موسى ؟ فقل : خيرهما وأبرهما، وإن سئلت أىّ المرأتين تزوّج ؟ فقل : الصغرى منهما ، وهى التى جاءت فقالت : ﴿ **يا أبت استأجره** ﴾ » . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« قال لى جبريل : يا محمد ، إن سألك اليهود أىّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما، وإن سألوك أيهما تزوّج؟ فقل: الصغرى منهما ». وأخرج البزار وابن أبى حاتم، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، قال السيوطى: بسند ضعيف، عن أبى ذرّ؛ أن النبى ﷺ سئل : أىّ الأجلين قضى موسى؟ قال :« أبرّهما وأوفاهما»، قال : « وإن سئلت أىّ المرأتين تزوّج ؟ فقل : الصغرى منهما » . قال البزار : لا نعلم يروى عن أبى ذرّ إلا بهذا الإسناد ، وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث عويد بن أبى عمران، وهو ضعيف. وأما روايات أنه قضى أتمّ الأجلين فلها طرق يقوّى بعضها بعضا . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق السدّى قال: قال ابن عباس : لما قضى موسى الأجل سار بأهله ، فضلّ الطريق ، وكان فى الشتاء فرفعت له نار ، فلما رآها ظنّ أنها نار ، وكانت من نور الله ﴿ **فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر** ﴾ فإن لم أجد خبرا آتيكم بشهاب قبس ﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ من البرد .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه: ﴿ **لعلى آتيكم منها بخبر** ﴾ لعلى أجد من يدلنى على الطريق،

---

(١) سبق استدراك الخطأ فى هامش (١) السابق .

(٢) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩٦) والبخارى فى الشهادات (٢٦٨٤) .

(٣) أبو يعلى (٢٤٠٨) وابن جرير ٢٠/٤٣ وصححه الحاكم ٢/٤٠٧ على شرط الشيخين وقال الذهبى : «حفص واه » .

(٤) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩٥) وصححه الحاكم ٢/٤٠٨ كلاهما عن ابن عباس ، وقال الذهبى : «إبراهيم لا يعرف » .

وكانوا قد ضلوا الطريق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أو جذوة** ﴾ قال : شهاب . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **نودى من شاطئ الواد** ﴾ قال : كان النداء من السماء الدنيا ، وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضى الله عنه. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : ذكرت لى الشجرة التى أوى إليها موسى ، فسرت إليها يومى وليلتى حتى صبحتها ، فإذا هى سمرة خضراء ترف ، فصليت على النبى ﷺ وسلمت ، فأهوى إليها بعيرى وهو جائع ، فأخذ منها ملء فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيغه فلفظه ، فصليت على النبىّ وسلمت ، ثم انصرفت (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واضمم إليك جناحك** ﴾ قال : يدك .

﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)** ﴾ .

لما سمع موسى قول الله سبحانه : ﴿ **فذانك برهانان** [**من ربك**] (٢) **إلى فرعون** ﴾ طلب منه سبحانه أن يقوّى قلبه، فقال : ﴿ **ربّ إنى قتلت منهم نفسا** ﴾ يعنى القبطى الذى وكزه فقضى عليه ﴿ **فأخاف أن يقتلون** ﴾ بها . ﴿ **وأخى هارون هو أفصح منى لسانا** ﴾ لأنه كان فى لسان موسى حبسة كما تقدّم بيانه . والفصاحة لغةً : الخلوص ، يقال : فصح اللبن وأفصح : فهو فصيح ، أى خلص من الرغوة ، ومنه فصح الرجل : جادت لغته ، وأفصح : تكلم بالعربية . وقيل : الفصيح : الذى ينطق ، والأعجم : الذى لا ينطق . وأما فى اصطلاح أهل

(١) ابن جرير ٢٠/ ٣٧ وصححه الحاكم ٢/ ٥٧٧ وقال الذهبى : « على شرط الشيخين » .
(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة .

البيان فالفصاحة : خلوص الكلمة عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس . وفصاحة الكلام: خلوصه من ضعف التأليف والتعقيد . وانتصاب ﴿ **ردءا** ﴾ على الحال، والردء: المعين ، من أردأته ، أى أعنته ، يقال : فلان ردء فلان : إذا كان ينصره ويشدّ ظهره ، ومنه قول الشاعر :

ألم تر أن أصرم كان ردئى وخير الناس فى قلّ ومال

وحذفت الهمزة تخفيفا فى قراءة نافع وأبى جعفر، ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم : أردى على المائة : إذا زاد عليها ، فكان المعنى : أرسله معى زيادة فى تصديقى ، ومنه قول الشاعر :

وأسمر خطيا كأن كعوبه نوى القسب قد أردى ذراعا على العشر

وروى البيت فى الصحاح بلفظ : قد أربى ، والقسب : الصلب ، وهو الثمر اليابس الذى يتفتت فى الفم، وهو صلب النواة. ﴿ **يصدقنى** ﴾ قرأ عاصم وحمزة : ﴿**يصدقنى**﴾ بالرفع على الاستئناف ، أو صفة لـ﴿ **ردءا** ﴾ أو الحال من مفعول أرسله. وقرأ الباقون بالجزم على جواب الأمر ، وقرأ أبى وزيد بن على : « يصدقون » أى فرعون وملؤه ﴿ **إنى أخاف أن يكذبون** ﴾ إذا لم يكن معى هارون لعدم انطلاق لسانى بالمحاجة . ﴿ **قال سنشدّ عضدك بأخيك** ﴾ أى نقويك به ، فشدّ العضد كناية عن التقوية ، ويقال فى دعاء الخير : شدّ اللّه عضدك ، وفى ضدّه : فتّ اللّه فى عضدك. قرأ الجمهور : ﴿ **عَضُدك** ﴾ بفتح العين. وقرأ الحسين وزيد بن علىّ بضمها . وروى عن الحسن أيضا أنه قرأ بضمة وسكون . وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما . ﴿ **ونجعل لكما سلطانا** ﴾ أى حجة وبرهانا ، أو تسلطا عليه ، وعلى قومه ﴿ **فلا يصلون إليكما** ﴾ بالأذى ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة ، و﴿ **بآياتنا** ﴾ متعلق بمحذوف ، أى تمتنعان منهم بآياتنا ، أو اذهبا بآياتنا . وقيل: الباء للقسم ، وجوابه : ﴿ **يصلون** ﴾ وما أضعف هذا القول . وقال الأخفش وابن جرير : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ﴿ **أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ بآياتنا ، وأوّل هذه الوجوه أولاها، وفى: ﴿ **أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ تبشير لهما وتقوية لقلوبهما .

﴿ **فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات** ﴾ البينات : الواضحات الدلالة ، وقد تقدّم وجه إطلاق الآيات ، وهى جمع على العصا واليد فى سورة طه ﴿ **قالوا ما هذا إلا سحر مفترى** ﴾ أى مختلق مكذوب اختلقته من قبل نفسك ﴿ **وما سمعنا بهذا** ﴾ الذى جئت به من دعوى النبوّة، أو ما سمعنا بهذا السحر ﴿ **فى آبائنا الأوّلين** ﴾ أى كائنا أو واقعا فى آبائنا الأوّلين. ﴿ **وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده** ﴾ يريد نفسه ، وإنما جاء بهذه العبارة ؛ لئلا يصرّح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة ، واللّه أعلم . قرأ الجمهور: ﴿ **وقال موسى** ﴾ بالواو ، وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن: « قال موسى » بلا واو ، وكذلك هو فى مصاحف أهل مكة . وقرأ الكوفيون إلا عاصما: « ومن يكون له عاقبة الدار » بالتحتية على أن اسم يكون عاقبة الدار.

والتذكير لوقوع الفصل ؛ ولأنه تأنيث مجازى ، وقرأ الباقون : ﴿ **تكون** ﴾ بالفوقية ، وهى أوضح من القراءة الأولى . والمراد بالدار هنا : الدنيا ، وعاقبتها : هى الدار الآخرة ، والمعنى : لمن تكون له العاقبة المحمودة . والضمير فى : ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ للشأن ، أى إن الشأن أنه **لا** يفلح الظالمون ، أى لا يفوزون بمطلب خير، ويجوز أن يكون المراد بعاقبة الدار : خاتمة الخير .

﴿ **وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾: تمسك اللعين بمجرّد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه منه ، وقد كان يعلم أن ربه اللّه عزّ وجلّ ، ثم رجع إلى تكبره وتجبره وإيهام قومه بكمال اقتداره فقال: ﴿ **فأوقد لى يا هامان على الطين** ﴾ أى اطبخ لى الطين حتى يصير آجرا ﴿ **فاجعل لى صرحا** ﴾ أى اجعل لى من هذا الطين الذى توقد عليه حتى يصير آجرا صرحا ، أى قصرا عاليا ﴿ **لعلى أطلع إلى إله موسى** ﴾ أى أصعد إليه ﴿ **وإنى لأظنه من الكاذبين** ﴾ والطلوع والاطلاع واحد ، يقال : طلع الجبل واطلع . ﴿ **واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق** ﴾ المراد بالأرض : أرض مصر، والاستكبار : التعظم بغير استحقاق ، بل بالعدوان ؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى ، ولا شبهة ينصبها فى مقابلة ما أظهره من المعجزات ﴿ **وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون** ﴾ أى فرعون وجنوده ، والمراد بالرجوع : البعث والمعاد. قرأ نافع وشيبة وابن محيصن وحميد ويعقوب وحمزة والكسائى : « لا يرجعون » بفتح الياء وكسر الجيم مبنيا للفاعل . وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الجيم مبينا للمفعول ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد .

﴿ **فأخذناه وجنوده** ﴾ بعد أن عتوا فى الكفر وجاوزوا الحدّ فيه ﴿ **فنبذناهم فى اليمّ** ﴾ أى طرحناهم فى البحر ، وقد تقدّم بيان الكلام فى هذا ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ الخطاب لنبينا محمد ﷺ ، أى انظر يا محمد كيف كان آخر أمر الكافرين حين صاروا إلى الهلاك ؟ ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار** ﴾ أى صيرناهم رؤساء متبوعين مطاعين فى الكافرين ، فكأنهم بإصرارهم على الكفر والتمادى فيه يدعون أتباعهم إلى النار؛ لأنهم اقتدوا وسلكوا طريقتهم تقليدا لهم . وقيل : المعنى : إنه يأتمّ بهم ، أى يعتبر بهم من جاء بعدهم ويتعظ بما أصيبوا به ، والأول أولى ﴿ **ويوم القيامة لاينصرون** ﴾ أى لاينصرهم أحد ولا يمنعهم مانع من عذاب اللّه ﴿**وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة** ﴾ أى طردا وإبعادا ، أو أمرنا العباد بلعنهم، فكل من ذكرهم لعنهم ، والأوّل أولى . ﴿ **ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ المقبوح : المطرود المبعد . وقال أبو عبيدة وابن كيسان : معناه : من المهلكين الممقوتين . وقال أبو زيد : قبح اللّه فلانا قبحا وقبوحا : أبعده من كل خير . قال أبو عمرو : قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبحت بالتشديد ، ومثله قول الشاعر :

ألا قبح اللّه البراجم كلها وقبح يربوعا وقبح دارما

وقيل: المقبوح: المشوه الخلقة. والعامل فى يوم ، محذوف يفسره من المقبوحين. والتقدير: وقبحوا يوم القيامة. أو هو معطوف على موضع فى هذه الدنيا ، أى وأتبعناهم لعنة يوم القيامة ، أو معطوف على لعنة على حذف مضاف ، أى ولعنة يوم القيامة . ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ يعنى التوراة ﴿ **من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾ أى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . وقيل : من بعد ما أهلكنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون. وانتصاب ﴿ **بصائر للناس**﴾ على أنه مفعول له أو حال ، أى آتيناه الكتاب لأجل يتبصر به الناس ، أو حال كونه بصائر للناس يبصرون به الحق ويهتدون إليه وينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به . ﴿ **ورحمة** ﴾ لهم من اللّه رحمهم بها ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ هذه النعم فيشكرون اللّه ويؤمنون به ويجيبون داعيه إلى ما فيه خير لهم .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿ **ردءا يصدقنى** ﴾ كى يصدقنى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لما قال فرعون : ﴿ **يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ قال جبريل : يا ربّ ، طغى عبدك فائذن لى فى هلكه ، فقال : يا جبريل ، هو عبدى ولن يسبقنى ، له أجل قد أجلته حتى يجىء ذلك الأجل ، فلما قال : ﴿**أنا ربكم الأعلى** ﴾ قال اللّه : يا جبريل سبقت دعوتك فى عبدى وقد جاء أوان هلاكه . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله ﷺ :« كلمتان قالهما فرعون : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ وقوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ » [النازعات : ٢٤] قال : « كان بينهما أربعون عاما ﴿ فأخذه اللّه نكال الآخرة والأولى ﴾ » [النازعات : ٢٥] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : بلغنى أن فرعون أوّل من طبخ الآجر. وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج. وأخرج البزار وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه، عن أبى سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما أهلك اللّه قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التى مسخت قردة ، ألم تر إلى قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾ »[1] . وأخرجه البزار وابن جرير وابن أبى حاتم من وجه آخر عن أبى سعيد موقوفا[2] .

﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا**

---

(١) صححه الحاكم ٢/٤٠٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ٢٠/ ٥٠ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩١ : « رواه البزار مرفوعًا وموقوفًا ورجالهما رجال الصحيح » .

رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **وما كنت بجانب الغربى** ﴾ هذا شروع فى بيان إنزال القرآن ، أى وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربىّ، فيكون من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، واختاره الزجاج. وقال الكلبى: بجانب الوادى الغربىّ ، أى حيث ناجى موسى ربه ﴿ **إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾ أى عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿ **وما كنت من الشاهدين** ﴾ لذلك حتى تقف على حقيقته وتحكيه من جهة نفسك . وإذا تقرّر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون بالحضور عندها من نبينا محمد ﷺ والمشاهدة لها منه ، وانتفى بالأدلة الصحيحة أنه لم يتلقّ ذلك من غيره من البشر ولا علمه معلم منهم كما قدّمنا تقريره ، تبين أنه من عند الله سبحانه بوحى منه إلى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك ، فهذا الكلام هو على طريقة: ﴿وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ [آل عمران : ٤٤] وقيل: معنى ﴿ **إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾ : إذ كلفناه وألزمناه . وقيل : أخبرناه أن أمة محمد خير الأمم ، ولا يستلزم نفى كونه بجانب الغربى نفى كونه من الشاهدين ؛ لأنه يجوز أن يحضر ولا يشهد . قيل : المراد بالشاهدين : السبعون الذين اختارهم موسى للميقات .

﴿ **ولكنا أنشأنا قرونا** ﴾ أى خلقنا أمما بين زمانك يا محمد وزمان موسى ﴿ **فتطاول عليهم العمر** ﴾ طالت عليهم المهلة وتمادى عليهم الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وتنوسيت الأديان

فتركوا أمر اللّه ونسوا عهده ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ [الحديد : ١٦] ، وقد استدّل بهذا الكلام على أن اللّه سبحانه قد عهد إلى موسى عهودا فى محمد ﷺ وفى الإيمان به فلما طال عليهم العمر ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها ﴿ **وما كنت ثاويا فى أهل مدين** ﴾ أى مقيما بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم وتقصّ عليهم من جهة نفسك . يقال : ثوى يثوى ثواء وثويا : فهو ثاو . قال ذو الرمة :

لقد كان فى حول ثواء ثويته تقضى لبانات ويسأم سائم

وقال العجاج :

فبات حيث يدخل الثوّى

يعنى الضيف المقيم .

وقال آخر :

طال الثواء على رسوم المنزل

﴿ **تتلو عليهم آياتنا** ﴾ أى تقرأ على أهل مدين آياتنا وتتعلم منهم . وقيل : تذكرهم بالوعد والوعيد ، والجملة فى محل نصب على الحال أو خبر ثان ، ويجوز أن تكون هذه الجملة هى الخبر ، و﴿ **ثاويا** ﴾ حال . وجعلها الفراء مستأنفة كأنه قيل : وها أنت تتلو على أمتك ﴿ **ولكنا كنا مرسلين** ﴾ أى أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الأخبار ولولا ذلك لما علمتها . قال الزجاج : المعنى : أنك لم تشاهد قصص الأنبياء ولا تليت عليك ، ولكنا أوحيناها إليك وقصصناها عليك .

﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ أى وما كنت يا محمد بجانب الجبل المسمى بالطور إذ نادينا موسى لما أتى إلى الميقات مع السبعين . وقيل المنادى :هو أمة محمد ﷺ . قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر اللّه له فضل محمد وأمته قال : يارب أرنيهم ، فقال اللّه : إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم ، قال : بلى يارب ، فقال اللّه : ياأمة محمد ، فأجابوا من أصلاب آبائهم . فيكون معنى الآية على هذا : ما كنت يامحمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك ، وسيأتى ما يدلّ على هذا ويقوّيه ويرجحه فى آخر البحث إن شاء اللّه ﴿ **ولكن رحمة من ربك** ﴾ أى ولكن فعلنا ذلك رحمة منا بكم . وقيل : ولكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم. وقيل : علمناك . وقيل : عرفناك . قال الأخفش : هو منصوب ، يعنى : رحمة، على المصدر ، أى ولكن رحمناك رحمة . وقال الزجاج : هو مفعول من أجله ، أى فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة . قال النحاس : أى لم تشهد قصص الأنبياء ولا تليت عليك ولكن بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة . وقال الكسائى : هو خبر لكان مقدّرة ، أى ولكن كان ذلك رحمة،

وقرأ عيسى بن عمر وأبوحيوة: « رحمة » بالرفع على تقدير: ولكن أنت رحمة. وقال الكسائي: الرفع على أنها اسم كان المقدّرة ، وهو بعيد إلا على تقدير أنها تامة ، واللام في : ﴿ **لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك** ﴾ متعلق بالفعل المقدّر على الاختلاف في تقديره . والقوم : هم أهل مكة ، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله ﷺ . وجملة : ﴿ **ما أتاهم** ﴾ . . . إلخ صفة لـ ﴿**قوما**﴾ ، ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ أي يتعظون بإنذارك .

﴿ **ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدّمت أيديهم** ﴾ لولا هذه ، هي الامتناعية وأن وما في حيزها في موضع رفع بالابتداء وجوابها محذوف . قال الزجاج : وتقديره : ما أرسلنا إليهم رسلا : يعني أن الحامل على إرسال الرسل هو إزاحة عللهم ، فهو كقوله سبحانه : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [النساء : ١٦٥] وقدّره ابن عطية : لعاجلناهم بالعقوبة ، ووافقه على هذا التقدير الواحدي فقال : والمعنى : لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم ، وقوله : ﴿ **فيقولوا** ﴾ عطف على تصيبهم ومن جملة ما هو في حيز لولا ، أي فيقولوا : ﴿ **ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا** ﴾ ولولا هذه الثانية، هي التحضيضية، أي هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك ، وجوابها هو : ﴿ **فنتبع آياتك** ﴾ وهو منصوب بإضمار أن ؛ لكونه جوابا للتحضيض ، والمراد بالآيات : الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة ، وإنما عطف القول على تصيبهم ؛ لكونه هو السبب للإرسال ، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها؛ جعلت العقوبة كأنها هي السبب لإرسال الرسل بواسطة القول ﴿ **ونكون من المؤمنين** ﴾ بهذه الآيات ، ومعنى الآية : أنا لو عذبناهم لقالوا : طال العهد بالرسل ولم يرسل الله إلينا رسولا ، ويظنون أن ذلك عذر لهم ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل ، ولكنا أكملنا الحجة وأزحنا العلة وأتممنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم.

﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى** ﴾ أي فلما جاء أهل مكة الحقّ من عند الله وهو محمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن ، قالوا تعنتا منهم وجدالابالباطل : هلا أوتي هذا الرسول مثل ما أوتي موسى من الآيات التي من جملتها التوراة المنزلة عليه جملة واحدة ؟ فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ **أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل** ﴾ أي من قبل هذا القول ، أو من قبل ظهور محمد ؛ والمعنى : أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ، وجملة : ﴿ **قالوا ساحران تظاهرا** ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم وعنادهم ، والمراد بقولهم: ﴿ **ساحران** ﴾ موسى ومحمد ، والتظاهر: التعاون ، أي تعاونا على السحر ، والضمير في قوله : ﴿ **أولم يكفروا** ﴾ لكفار قريش . وقيل : هو لليهود . والأوّل أولى ، فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر إنما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم إلا أن يراد من أنكر نبوّة موسى كفرعون وقومه ، فإنهم وصفوا موسى وهارون بالسحر ، ولكنهم ليسوا من اليهود ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى ومن كفر بمحمد، فإن الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر ، والذين

كفروا بمحمد وصفوه أيضا بالسحر. وقيل : المعنى : أو لم يكفر اليهود فى عصر محمد بما أوتى موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد. قرأ الجمهور: ﴿ **ساحران** ﴾ وقرأ الكوفيون: ﴿سحران﴾ يعنون التوراة والقرآن . وقيل : الإنجيل والقرآن . قال بالأوّل الفراء ، وقال بالثانى أبو زيد . وقيل : إن الضمير فى : ﴿ **أولم يكفروا** ﴾ لليهود ، وأنهم عنوا بقولهم : ﴿ **ساحران** ﴾ عيسى ومحمدا . ﴿ **وقالوا إنا بكلّ كافرون** ﴾ أى بكلّ من موسى ومحمد ، أو من موسى وهارون ، أو من موسى وعيسى على اختلاف الأقوال ، وهذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة الثانية فالمراد : التوراة والقرآن أو الإنجيل والقرآن . وفى هذه الجملة تقرير لما تقدّمها من وصف النبيين بالسحر ، أو من وصف الكتابين به وتأكيد لذلك .

ثم أمر اللّه سبحانه نبيه أن يقول لهم قولا يظهر به عجزهم فقال : ﴿ **قل فأتوا بكتاب من عند اللّه هو أهدى منهما أتبعه** ﴾ أى قل لهم يا محمد : فأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن، و﴿ **أتبعه** ﴾ جواب الأمر ، وقد جزمه جمهور القراء لذلك . وقرأ زيد بن علىّ برفع : « أتبعه » على الاستئناف ، أى فأنا أتبعه . قال الفراء : إنه على هذه القراءة صفة للكتاب ، وفى هذا الكلام تهكم به . وفيه أيضا دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور ؛ لأنه رجع الكلام إلى الكتابين لا إلى الرسولين، ومعنى ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ : إن كنتم فيما وصفتم به الرسولين أو الكتابين صادقين . ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك** ﴾ أى لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين ، وجواب الشرط : ﴿ **فاعلم أنما يتبعون أهواءهم** ﴾ أى آراءهم الزائغة واستحساناتهم الزائفة بلا حجة ولا برهان ، وقيل : المعنى : فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به . وتعدية ﴿ **يستجيبوا** ﴾ باللام هو أحد الجائزين ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من اللّه** ﴾ أى لا أحد أضلّ منه ، بل هو الفرد الكامل فى الضلال ﴿ **إن اللّه لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ لأنفسهم بالكفر وتكذيب الأنبياء والإعراض عن آيات اللّه .

﴿ **ولقد وصلنا لهم القول** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **وصلنا** ﴾ بتشديد الصاد ، وقرأ الحسن بتخفيفها ، ومعنى الآية : أتبعنا بعضه بعضا وبعثنا رسولا بعد رسول . وقال أبو عبيدة والأخفش : معناه : أتممنا . وقال ابن عيينة والسدّى : بينا . وقال ابن زيد : وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا ، والأولى أولى . وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض ، ومنه قول الشاعر :

فقل لبنى مروان ما بال ذمتى بحبل ضعيف لا تزال توصل

وقال امرؤ القيس :

يقلب كفيه بخيط موصل

والضمير فى : ﴿ **لهم** ﴾ عائد إلى قريش . وقيل : إلى اليهود . وقيل: للجميع ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ فيكون التذكر سببا لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم . ﴿ **الذين آتيناهم**

الكتاب من قبله ﴾ أى من قبل القرآن ، والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **هم به يؤمنون** ﴾ أخبرسبحانه أن طائفة من بنى إسرائيل آمنوا بالقرآن كعبد اللّه بن سلام وسائر من أسلم من أهل الكتاب ، وقيل :الضمير فى ﴿ **من قبله** ﴾ يرجع إلى محمد ﷺ ، والأوّل أولى . والضمير فى ﴿ **به** ﴾ راجع إلى القرآن على القول الأوّل ، وإلى محمد على القول الثانى . ﴿ **وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به** ﴾ أى وإذا يتلى القرآن عليهم قالوا: صدّقنا به ﴿ **إنه الحق من ربنا** ﴾ أى الحق الذى نعرفه المنزل من ربنا ﴿ **إنا كنا من قبله مسلمين** ﴾ أى مخلصين للّه بالتوحيد أو مؤمنين بمحمد وبما جاء به لما نعلمه من ذكره فى التوراة والإنجيل من التبشير به ، وأنه سيبعث آخر الزمان وينزل عليه القرآن ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرّتين** ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ، والباء فى ﴿ **بما صبروا** ﴾ للسببية ، أى بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول والكتاب الآخر . وبالنبىّ الأوّل والنبىّ الآخر ﴿ **ويدرؤون بالحسنة السيئة** ﴾ الدرء : الدفع ، أى يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن ما يلاقونه من الأذى . وقيل : يدفعون بالطاعة المعصية. وقيل: بالتوبة والاستغفار، الذنوب . وقيل : بشهادة أن لا إله إلا اللّه ، الشرك ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أى ينفقون أموالهم فى الطاعات وفيما أمر به الشرع .

ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو فقال : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه** ﴾ تكرّما وتنزّها وتأدّبا بآداب الشرع ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما ﴾ [الفرقان : ٧٢] واللغو هنا هو: ما يسمعونه من المشركين من الشتم لهم ولدينهم والاستهزاء بهم ﴿ **وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ لا يلحقنا من ضرركفركم شىء ، ولايلحقكم من نفع إيماننا شىء ﴿**سلام عليكم** ﴾ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية ؛ ولكن المراد به :سلام المتاركة ؛ ومعناه : أمنة لكم منا وسلامة، لا نجاريكم ولا نجاوبكم فيما أنتم فيه. قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال ﴿ **لا نبتغى الجاهلين** ﴾ أى لا نطلب صحبتهم . وقال مقاتل : لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه. وقال الكلبى: لا نحبّ دينكم الذى أنتم عليه. ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت** ﴾ من الناس وليس ذلك إليك ﴿ **ولكن اللّه يهدى من يشاء** ﴾ هدايته ﴿ **وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ أى القابلين للهداية المستعدّين لها ، وهذه الآية نزلت فى أبى طالب كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما [١] ، وقد تقدّم ذلك فى براءة . قال الزجاج : أجمع المفسرون على أنها نزلت فى أبى طالب ، وقد تقرّر فى الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيدخل فى ذلك أبو طالب دخولا أوليا .

﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾ أى قال مشركو قريش ومن تابعهم : إن ندخل فى دينك يا محمد نتخطف من أرضنا ، أى يتخطفنا العرب من أرضنا ، يعنون مكة

---

(١) أحمد ٥/ ٤٣٣ والبخارى فى التفسير (٤٧٧٢) ومسلم فى الإيمان (٢٤/ ٣٩) والنسائى فى التفسير (٢٥٠) كلهم عن المسيب بن حزن ، كما أخرجه أحمد ٢/ ٤٣٤ ومسلم فى الإيمان (٢٥/ ٤٢) والترمذى فى التفسير (٣١٨٨) وقال : «حسن غريب » . كلهم عن أبى هريرة .

ولا طاقة لنا بهم ، وهذا من جملة أعذارهم الباطلة وتعللاتهم العاطلة ، والتخطف فى الأصل هو : الانتزاع بسرعة . قرأ الجمهور: ﴿ **نتخطف** ﴾ بالجزم جوابا للشرط ، وقرأ المنقرى بالرفع على الاستئناف . ثم ردّ ذلك عليهم ردًا مصدّرا باستفهام التوبيخ والتقريع فقال : ﴿ **أو لم نمكن لهم حرما آمنا** ﴾ أى ألم نجعل لهم حرما ذا أمن ؟ قال أبو البقاء : عدّاه بنفسه ؛ لأنه بمعنى جعل كما صرّح بذلك فى قوله : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ثم وصف هذا الحرم بقوله : ﴿ **يجبى إليه ثمرات كل شىء** ﴾ أى تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضى المختلفة وتحمل إليه. قرأ الجمهور : ﴿ **يجبى** ﴾ بالتحتية اعتبارا بتذكير كل شىء ووجود الحائل بين الفعل وبين ثمرات، وأيضا ليس تأنيث ثمرات بحقيقىّ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد لما ذكرنا، وقرأ نافع بالفوقية اعتبارا بثمرات . وقرأ الجمهور أيضا : ﴿ **ثمرات** ﴾ بفتحتين ، وقرأ أبان بضمتين ، جمع ثمر بضمتين ، وقرئ بفتح الثاء وسكون الميم ﴿ **رزقا من لدنا** ﴾ منتصب على المصدرية ؛ لأن معنى ﴿ **يجبى** ﴾ : نرزقهم ، ويجوز أن ينتصب على أنه مفعول له لفعل محذوف ، أى نسوقه إليهم رزقا من لدنا ، ويجوز أن ينتصب على الحال ، أى رازقين ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ لفرط جهلهم ومزيد غفلتهم وعدم تفكرهم فى أمر معادهم ورشادهم ؛ لكونهم ممن طبع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

وقد أخرج الفريابى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقى معا فى الدلائل عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ قال : نودوا : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى ، واستجبت لكم قبل أن تدعونى[1] . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا . وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر عنه من وجه آخر بنحوه . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل وأبو نصر السجزى فى الإبانة، والديلمى عن عمرو بن عبسة قال : سألت النبى ﷺ عن قوله: ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ ما كان النداء وما كانت الرحمة ؟ قال : « كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفى عام ، ثم وضعه على عرشه ، ثم نادى : ياأمة محمد ، سبقت رحمتى غضبى ، أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ، فمن لقينى منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبدى ورسولى صادقا أدخلته الجنة » [2] . وأخرج الختلى فى الديباج عن سهل بن سعد الساعدى مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن حذيفة فى قوله : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ مرفوعا، قال: نودوا: يا أمة محمد، ما دعوتمونا إذ استجبنا لكم ، ولا سألتمونا إذ أعطيناكم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا : « إن الله نادى : يا أمة محمد، أجيبوا ربكم » قال : « فأجابوا وهم فى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم

---

(١) النسائى فى التفسير (٤٠٢) وابن جرير ٢٠/٥١ وصححه الحاكم ٢/٤٠٨ على شرط مسلم وسكت عنه الذهبى .

(٢) الديلمى (٧٢٠٦) .

إلى يوم القيامة فقالوا : لبيك، أنت ربنا حقا ونحن عبيدك حقا ، قال : صدقتم أنا ربكم وأنتم عبيدى حقا ، قد عفوت عنكم قبل أن تدعونى، وأعطيتكم قبل أن تسألونى، فمن لقينى منكم بشهادة أن لا إله إلا اللّه دخل الجنة » .

وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرىّ قال: قال رسول اللّه ﷺ : «الهالك فى الفترة يقول: ربّ لم يأتنى كتاب ولا رسول»، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قالوا ساحران تظاهرا** ﴾ إلخ : قال : هم أهل الكتاب ﴿ **إنا بكلّ كافرون** ﴾ يعنى بالكتابين: التوراة ، والفرقان. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، وأبو القاسم البغوى والباوردى وابن قانع الثلاثة فى معاجم الصحابة، والطبرانى وابن مردويه بسند جيد عن رفاعة القرظى قال: نزلت: ﴿**ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرّتين** ﴾ فى عشرة رهط أنا أحدهم [(١)] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون** ﴾ قال: يعنى من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأوّل والآخر، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده » [(٢)] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث المسيب ومسلم وغيره من حديث أبى هريرة أن قوله: ﴿ **إنك لاتهدى من أحببت** ﴾ نزلت فى أبى طالب لما امتنع من الإسلام [(٣)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن ناسا من قريش قالوا للنبىّ ﷺ : إن نتبعك يتخطفنا الناس ، فنزلت : ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك** ﴾ الآية [(٤)] . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **يجبى إليه ثمرات كل شىء**﴾ قال: ثمرات الأرض.

﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾

---

(١) ابن جرير ٢٠/٥٦ والطبرانى (٤٥٦٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/٩١ : « رواه الطبرانى بإسنادين : أحدهما : متصل ورجاله ثقات وهو هذا والآخر : منقطع الإسناد».

(٢) أحمد ٤/٣٩٥ والبخارى فى العلم (٩٧) ومسلم فى الإيمان (١٥٤/ ٢٤١) والترمذى فى النكاح (١١١٦) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى النكاح ٦/١١٥ وابن ماجه فى النكاح (١٩٥٦) والدارمى فى النكاح ٢/١٥٥.

(٣) سبق تخريجه .

(٤) ابن جرير ٢٠/٦٠ .

وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ .

قوله: ﴿ **وكم أهلكنا من قرية** ﴾ أى من أهل قرية كانوا فى خفض عيش ودعة ورخاء، فوقع منهم البطر فأهلكوا. قال الزجاج: البطر: الطغيان عند النعمة. قال عطاء: عاشوا فى البطر فأكلوا رزق اللّه وعبدوا الأصنام. قال الزجاج والمازنى : معنى ﴿ **بطرت معيشتها** ﴾ :بطرت فى معيشتها، فلما حذفت « فى» تعدّى الفعل، كقوله: ﴿واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف :١٥٥]. وقال الفراء : هو منصوب على التفسير كما تقول : أبطرك مالك وبطرته، ونظيره عنده قوله تعالى : ﴿ إلا من سفه نفسه ﴾ [البقرة : ١٣٠] ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين ؛ لأن معنى التفسير : أن تكون النكرة دالة على الجنس. وقيل : إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى : جهلت ﴿ **فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا** ﴾ أى لم يسكنها أحد بعدهم إلا زمنا قليلا، كالذى يمرّ بها مسافرا فإنه يلبث فيها يوما أو بعض يوم، أو لم يبق من يسكنها إلا أياما قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم. وقيل : إن الاستثناء يرجع إلى المساكن، أى لم تسكن بعد هلاك أهلها إلا قليلا من المساكن وأكثرها خراب، كذا قال الفراء وهو قول ضعيف ﴿ **وكنا نحن الوارثين** ﴾ منهم ؛ لأنهم لم يتركوا وارثا يرث منازلهم وأموالهم ، ومحلّ جملة : ﴿ **لم تسكن** ﴾ الرفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال.

﴿ **وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا** ﴾ أى وما صحّ ولا استقام أن يكون اللّه مهلك القرى الكافرة أى الكافر أهلها حتى يبعث فى أمها رسولا ينذرهم ويتلو عليهم آيات اللّه الناطقة بما أوجبه اللّه عليهم وما أعدّه من الثواب للمطيع والعقاب للعاصى، ومعنى ﴿ **أمها** ﴾ : أكبرها وأعظمها، وخص الأعظم منها بالبعثة إليها؛ لأن فيها أشراف القوم، وأهل الفهم والرأى، وفيها الملوك والأكابر، فصارت بهذا الاعتبار كالأمّ لما حولها

من القرى. وقال الحسن: أمّ القرى : أوّلها. وقيل : المراد بأمّ القرى هنا : مكة، كما فى قوله : ﴿إن أوّل بيت وضع للناس﴾ الآية [آل عمران : ٩٦] ، وقد تقدم بيان ما تضمنته هذه الآية فى آخر سورة يوسف، وجملة : ﴿ **يتلو عليهم آياتنا** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى تاليا عليهم ومخبرا لهم أن العذاب سينزل بهم إن لم يؤمنوا ﴿ **وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة التى قبلها، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أى وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث إلى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق إلا حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم، وتأكيد الحجة عليهم كما فى قوله سبحانه : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ [هود : ١١٧].

ثم قال سبحانه : ﴿ **وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ الخطاب لكفارمكة، أى وما أعطيتم من شىء من الأشياء فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به مدّة حياتكم أو بعض حياتكم ثم تزولون عنه أويزول عنكم، وعلى كل حال فذلك إلى فناء وانقضاء ﴿ **وما عند اللّه** ﴾ من ثوابه وجزائه ﴿ **خير** ﴾ من ذلك الزائل الفانى ؛ لأنه لذّة خالصة عن شوب الكدر﴿ **وأبقى** ﴾ لأنه يدوم أبدا، وهذا ينقضى بسرعة ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أن الباقى أفضل من الفانى ، وما فيه لذّة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر المنغصة بعوارض البدن والقلب ، وقرئ بنصب : « متاع » على المصدرية ، أى فتمتعون متاع الحياة ، وقرأ أبو عمرو : «يعقلون» بالتحتية، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب وقراءتهم أرجح ؛ لقوله : ﴿ **وما أوتيتم** ﴾ .

﴿ **أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه** ﴾ أى وعدناه بالجنة وما فيها من النعم التى لا تحصى فهو لاقيه، أى مدركه لا محالة فإن اللّه لايخلف الميعاد ﴿ **كمن متعناه متاع الحياة الدنيا** ﴾ فأعطى منها بعض ما أراد مع سرعة زواله وتنغيصه ﴿ **ثم هو يوم القيامة من المحضرين** ﴾ هذا معطوف على قوله : ﴿ **متعناه** ﴾ داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ومقرّر له، والمعنى : ثم هذا الذى متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار ، وتخصيص المحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاه المقام ، والاستفهام للإنكار، أى ليس حالهما سواء ، فإن الموعود بالجنة لابدّ أن يظفر بما وعد به مع أنه لايفوته نصيبه من الدنيا، وهذا حال المؤمن. وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلا مجرّد التمتيع بشىء من الدنيا يستوى فيه هو والمؤمن ، وينال كل واحد منهما حظه منه ، وهو صائر إلى النار، فهل يستويان ؟ قرأ الجمهور: ﴿ **ثم هو** ﴾ بضم الهاء ، وقرأ الكسائى وقالون بسكون الهاء إجراء لـ« ثم » مجرى الواو والفاء.

وانتصاب يوم فى قوله : ﴿ **ويوم يناديهم** ﴾ بالعطف على يوم القيامة أو بإضمار اذكر، أى يوم ينادى اللّه سبحانه هؤلاء المشركين ﴿ **فيقول** ﴾ لهم : ﴿ **أين شركائى الذين كنتم تزعمون** ﴾ أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم، ومفعولا يزعمون محذوفان ، أى تزعمونهم شركائى لدلالة الكلام عليهما ﴿ **قال الذين حقّ عليهم القول** ﴾ أى حقت عليهم كلمة العذاب وهم رؤساء الضلال الذين اتخذوهم أربابا من دون اللّه، كذا قال الكلبى. وقال قتادة: هم الشياطين ﴿ **ربنا**

هؤلاء الذين أغوينا ﴾ أى دعوناهم إلى الغواية يعنون الأتباع ﴿ **أغويناهم كما غوينا** ﴾ أى أضللناهم كما ضللنا ﴿ **تبرأنا إليك** ﴾ منهم، والمعنى : أن رؤساء الضلال أو الشياطين تبرّؤوا ممن أطاعهم. قال الزجاج : برئ بعضهم من بعض، وصاروا أعداء كما قال الله تعالى: ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، و﴿ **هؤلاء** ﴾ مبتدأ و﴿ **الذين أغوينا** ﴾ صفته، والعائد محذوف ، أى أغويناهم ، والخبر : ﴿ **أغويناهم** ﴾ ، ﴿ **كما غوينا** ﴾ نعت مصدر محذوف. وقيل: إن خبر هؤلاء هو الذين أغوينا، وأما ﴿ **أغويناهم كما غوينا** ﴾ فكلام مستأنف لتقرير ما قبله، ورجح هذا أبو علىّ الفارسى، واعترض الوجه الأوّل ، وردّ اعتراضه أبو البقاء. ﴿ **ما كانوا إيانا يعبدون** ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم .وقيل : إن « ما » فى : ﴿ **ما كانوا** ﴾ مصدرية، أى تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا ، والأول أولى .

﴿ **وقيل ادعوا شركاءكم** ﴾ أى قيل للكفار من بنى آدم هذا القول ، والمعنى : استغيثوا بآلهتكم التى كنتم تعبدونهم من دون الله فى الدنيا لينصروكم ويدفعوا عنكم ﴿ **فدعوهم** ﴾ عند ذلك ﴿ **فلم يستجيبوا لهم** ﴾ ولا نفعوهم بوجه من وجوه النفع ﴿ **ورأو العذاب** ﴾ أى التابع والمتبوع قد غشيهم ﴿**لو أنهم كانوا يهتدون**﴾ قال الزجاج: جواب لو محذوف، والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم ذلك ولم يروا العذاب . وقيل : المعنى : لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم. وقيل :المعنى : لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق . وقيل : المعنى : لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب. وقيل: قد آن لهم أن يهتدوا لو كانوا يهتدون. وقيل غير ذلك ، والأوّل أولى . ويوم فى قوله : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى : ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى ؟.

﴿ **فعميت عليهم الأنباء يومئذ** ﴾ أى خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمى الذين لا يهتدون ، والأصل فعموا عن الأنباء، ولكنه عكس الكلام للمبالغة ، والأنباء : الأخبار ، وإنما سمى حججهم أخبارا ؛ لأنها لم تكن من الحجة فى شىء ، وإنما هى أقاصيص وحكايات ﴿**فهم لا يتساءلون** ﴾ لا يسأل بعضهم بعضا، ولا ينطقون بحجة ولا يدرون بما يجيبون ؛ لأن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة . قرأ الجمهور : ﴿ **عميت** ﴾ بفتح العين وتخفيف الميم . وقرأ الأعمش وجناح بن حبيش بضم العين وتشديد الميم . ﴿ **فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين** ﴾ أن تاب من الشرك وصدّق بما جاء به الرسل وأدّى الفرائض واجتنب المعاصى فعسى أن يكون من المفلحين ، أى الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين، وعسى وإن كانت فى الأصل للرجاء فهو من الله واجب على ما هو عادة الكرام. وقيل: إن الترجى هو من التائب المذكور لا من جهة الله سبحانه.

﴿ **وربك يخلق ما يشاء** ﴾ أى يخلقه ﴿ **ويختار** ﴾ ما يشاء أن يختاره . ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم، بل

الاختيار إلى الله ﴿ **ما كان لهم الخيرة** ﴾ أى التخير. وقيل : المراد من الآية : أنه ليس لأحد من خلق الله أن يختار، أى الاختيار إلى الله عزّ وجلّ. وقيل: إن هذه الآية جواب عن قولهم : ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] وقيل: هذه الآية جواب عن اليهود حيث قالوا: لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به. قال الزجاج: الوقف على ﴿**ويختار**﴾ تام على أن «ما» نافية. قال : ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ ﴿**يختار**﴾ والمعنى : ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة . والصحيح الأوّل لإجماعهم على الوقف . وقال ابن جرير: إن تقدير الآية : ويختار لولايته الخيرة من خلقه، وهذا فى غاية من الضعف . وجوّز ابن عطية أن تكون كان تامة ، ويكون لهم الخيرة جملة مستأنفة . وهذا أيضا بعيد جدّا . وقيل : إن «ما » مصدرية ، أى يختار اختيارهم والمصدر واقع موقع المفعول به ، أى ويختارمختارهم ، وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير. والراجح أوّل هذه التفاسير ، ومثله قوله سبحانه: ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة﴾ [الأحزاب :٣٦] والخيرة : التخير كالطيرة فإنها التطير، اسمان يستعملان استعمال المصدر، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿**سبحان الله**﴾ أى تنزّه تنزّها خاصا به من غير أن ينازعه منازع ويشاركه مشارك ﴿ **وتعالى عما يشركون**﴾ أى عن الذين يجعلونهم شركاء له، أو عن إشراكهم .

﴿ **وربك يعلم ما تكنّ صدورهم** ﴾ أى تخفيه من الشرك، أو من عداوة رسول الله ﷺ ، أو من جميع ما يخفونه مما يخالف الحق ﴿ **وما يعلنون** ﴾ أى يظهرونه من ذلك. قرأ الجمهور : ﴿ **تكن** ﴾ بضم التاء الفوقية وكسر الكاف. وقرأ ابن محيصن وحميد بفتح الفوقية وضم الكاف. ثم تمدح سبحانه وتعالى بالوحدانية والتفرّد باستحقاق الحمد فقال : ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى** ﴾ أى الدنيا ﴿ **والآخرة** ﴾ أى الدار الآخرة ﴿ **وله الحكم** ﴾ يقضى بين عباده بما شاء من غير مشارك ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ بالبعث فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، لا ترجعون إلى غيره .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾ قال : قال الله: لم نهلك قرية بإيمان ، ولكنه أهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها ، ولو كانت مكة آمنت لم يهلكوا مع من هلك ، ولكنهم كذبوا وظلموا فبذلك هلكوا . وأخرج مسلم، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عزّ وجلّ: يا بن آدم مرضت فلم تعدنى » [(١)] الحديث بطوله. وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال: «يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا، وأعطش ما كانوا ، وأعرى ماكانوا ، فمن أطعم لله عزّ وجلّ أطعمه الله ، ومن كسا لله عزّ وجلّ كساه الله،ومن سقى لله عزّ وجلّ سقاه الله، ومن كان فى رضا الله كان الله على رضاه». وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد: ﴿ **فعميت عليهم الأنباء** ﴾ قال:

(١) مسلم فى البر والصلة (٤٣/٢٥٦٩) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٣٥٠ .

الحجج ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ قال :بالأنساب . وقد ثبت عنه ﷺ فى الصحيح تعليم الاستخارة وكيفية صلاتها ودعائها (١) ، فلا نطول بذكره .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً

---

(١) أحمد ٣/ ٣٤٤ والبخارى فى التهجد (١١٦٢) وأبو داود فى الصلاة (١٥٣٨) والترمذى فى الوتر (٤٨٠) وقال : « حسن صحيح غريب » والنسائى ٦/ ٨٠ وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٨٣) كلهم عن جابر بن عبد الله .

مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل أرأيتم** ﴾ أى أخبرونى ﴿ **إن جعل اللّه عليكم الليل سرمدا** ﴾ السرمد : الدائم المستمرّ ، من السرد ، وهو المتابعة فالميم زائدة ، ومنه قول طرفة :

لعمرك ما أمرى عليك بغمة نهارى ولا ليلى عليك بسرمد

وقيل : إن ميمه أصلية ووزنه فعلل لا مفعل ، وهوالظاهر . بين لهم سبحانه أنه مهد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بشكر النعمة ؛ فإنه لو كان الدهر الذى يعيشون فيه ليلا دائما إلى يوم القيامة لم يتمكنوا من الحركة فيه وطلب ما لا بدّ لهم منه ، مما يقوم به العيش من المطاعم والمشارب والملابس . ثم امتنّ عليهم فقال : ﴿ **من إله غير اللّه يأتيكم بضياء** ﴾ أى هل لكم إله من الآلهة التى تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء ؟ أى بنور تطلبون فيه المعيشة وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه وتصلح به ثماركم وتنمو عنده ذرائعكم وتعيش فيه دوابكم ﴿**أفلا تسمعون** ﴾ هذا الكلام سماع فهم وقبول وتدبير وتفكر .

ثم لما فرغ من الامتنان عليهم بوجود النهار امتنّ عليهم بوجود الليل فقال : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل اللّه عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة** ﴾ أى جعل جميع الدهر الذى تعيشون فيه نهارا إلى يوم القيامة ﴿**من إله غير اللّه يأتيكم بليل تسكنون فيه**﴾ أى تستقرّون فيه من النصب والتعب، وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش والكسب ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ ؛ حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير اللّه ، وإذا أقرّوا بأنه لا يَقدر علىَ ذلك إلا اللّه عزّ وجلّ فقد لزمتهم الحجة ، وبطل ما يتمسكون به من الشبه الساقطة ، وإنما قرن سبحانه بالضياء قوله: ﴿ **أفلا تسمعون** ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل قوله : ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ لأن البصر يدرك ما لا يدركه السمع من ذلك ﴿**ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه**﴾ أى فى الليل ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ أى فى النهار بالسعى فى المكاسب ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أى ولكى تشكروا نعمة الله عليكم ، وهذه الآية من باب اللف والنشر، كما فى قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها ، العناب والحشف البالى

واعلم أنه وإن كان السكون فى النهار ممكنا ، وطلب الرزق فى الليل ممكنا ، وذلك عند طلوع القمر على الأرض ، أوعند الاستضاءة بشىء مما له نور كالسراج ، لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به . ﴿ **ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون** ﴾ كرر سبحانه هذا لاختلاف الحالتين ؛ لأنهم ينادون مرة فيدعون الأصنام ، وينادون أخرى

فيسكتون ، وفى هذا التكرير أيضا تقريع بعد تقريع وتوبيخ بعد توبيخ ، وقوله : ﴿ **ونزعنا من كل أمة شهيدا** ﴾ عطف على ينادى ، وجاء بصيغة الماضى للدلالة على التحقق ، والمعنى : وأخرجنا من كل أمة من الأمم شهيدا يشهد عليهم. قال مجاهد :هم الأنبياء ، وقيل :عدول كل أمة، والأول أولى. ومثله قوله سبحانه : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء :٤١] ثم بين سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله : ﴿ **فقلنا هاتوا برهانكم** ﴾ أى حجتكم ودليلكم بأن معى شركاء ، فعند ذلك اعترفوا وخرسوا عن إقامة البرهان ، ولذا قال : ﴿ **فعلموا أن الحق للّه** ﴾ فى الإلهية وأنه وحده لا شريك له ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى غاب عنهم وبطل وذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب فى الدنيا بأن للّه شركاء يستحقون العبادة .

ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة وعجيب الصنع فقال : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى** ﴾ قارون على وزن فاعول اسم أعجمى ممتنع للعجمة والعلمية ، وليس بعربىّ مشتق من قرنت . قال الزجاج : لو كان قارون من قرنت الشىء لانصرف . قال النخعى وقتادة وغيرهما : كان ابن عمّ موسى ، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى هو ابن عمران بن قاهث . وقال ابن إسحاق : كان عمّ موسى لأب وأم فجعله أخا لعمران ، وهما ابنا قاهث . وقيل : ابن خالة موسى ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، فنافق كما نافق السامرى وخرج عن طاعة موسى ، وهو معنى قوله : ﴿ **فبغى عليهم** ﴾ أى جاوز الحدّ فى التجبر والتكبر عليهم وخرج عن طاعة موسى وكفر باللّه . قال الضحاك : بغيه على بنى إسرائيل : استخفافه بهم لكثرة ماله وولده . وقال قتادة : بغيه بنسبته ما آتاه اللّه من المال إلى نفسه لعلمه وحيلته . وقيل : كان عاملا لفرعون على بنى إسرائيل فتعدّى عليهم وظلمهم . وقيل : كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية .

﴿ **وآتيناه من الكنوز** ﴾ جمع كنز، وهو المال المدّخر . قال عطاء : أصاب كنزا من كنوز يوسف ، وقيل : كان يعمل الكيمياء ، و« ما » فى قوله : ﴿ **ما إن مفاتحه** ﴾ موصولة صلتها إنّ وما فى حيزها ، ولهذا كسرت . ونقل الأخفش الصغير عن الكوفيين منع جعل المكسورة وما فى حيزها صلة الذى ، واستقبح ذلك منهم لوروده فى الكتاب العزيز فى هذا الموضع . والمفاتح : جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به ، وقيل : المراد بالمفاتح : الخزائن ، فيكون واحدها مفتح بفتح الميم. قال الواحدى: إن المفاتح: الخزائن فى قول أكثر المفسرين ، كقوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [الأنعام : ٥٩] قال : وهو اختيار الزجاج فإنه قال : الأشبه فى التفسير أن مفاتحه : خزائن ماله . وقال آخرون : هى جمع مفتاح ، وهو ما يفتح به الباب ، وهذا قول قتادة ومجاهد ﴿ **لتنوء بالعصبة أولى القوة** ﴾ هذه الجملة خبر إن وهى واسمها وخبرها صلة ما الموصولة ، يقال : ناء بحمله : إذا نهض به مثقلا ، ويقال : ناء بى الحمل : إذا أثقلنى ، والمعنى : يثقلهم حمل المفاتح. قال أبو عبيدة : هذا من المقلوب، والمعنى : لتنوء بها العصبة،

أى تنهض بها . قال أبو زيد : نؤت بالحمل : إذا نهضت به . قال الشاعر :

إنا وجدنا خلفا بئس الخلف عبدا إذا ما ناء بالحمل وقف

وقال الفراء : معنى تنوء بالعصبة : تميلهم بثقلها ، كما يقال : يذهب بالبؤس ويُذهِب البؤس وذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأنأته ، واختار هذا النحاس ، وبه قال كثير من السلف . وقيل : هو مأخوذ من النأى ، وهو البعد وهو بعيد . وقرأ بديل بن ميسرة : «لينوء » بالياء ، أى لينوء الواحد منها أو المذكور ، فحمل على المعنى . والمراد بالعصبة : الجماعة التى يتعصب بعضها لبعض . قيل : هى من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : من العشرة إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين العشرة إلى العشرين . وقيل : من الخمسة إلى العشرة . وقيل : أربعون . وقيل : سبعون . وقيل غير ذلك ﴿ **إذ قال له قومه لا تفرح** ﴾ الظرف منصوب بـ ﴿ **تنوء**﴾ . وقيل : بـ ﴿ **آتيناه** ﴾ وقيل : بـ ﴿ **بغى** ﴾ . وردّهما أبو حيان بأن الإيتاء والبغى لم يكونا ذلك الوقت . وقال ابن جرير : هو متعلق بمحذوف وهو : اذكر ، والمراد بقومه هنا : هم المؤمنون من بنى إسرائيل . وقال الفراء :هو موسى وهو جمع أريد به الواحد ، ومعنى ﴿ **لا تفرح** ﴾ : لا تبطر ولا تأشر ﴿ **إن اللّه لا يحبّ الفرحين** ﴾ البطرين الأشرين الذين لا يشكرون اللّه على ما أعطاهم . قال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال ، فإن الفرح بالمال لا يؤدى حقه . وقيل : المعنى : لا تفسد ، كقول الشاعر :

إذا أنت لم تبرح تؤدى أمانة وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

أى أفسدتك . قال الزجاج : الفرحين والفارحين سواء . وقال الفراء : معنى الفرحين : الذين هم فى حال الفرح ، والفارحين : الذين يفرحون فى المستقبل . وقال مجاهد : معنى ﴿**لا تفرح** ﴾ : لا تبغ إن اللّه لا يحبّ الفرحين الباغين . وقيل : معناه : لا تبخل إن اللّه لا يحبّ الباخلين .

﴿ **وابتغ فيما آتاك اللّه الدار الآخرة** ﴾ أى واطلب فيما أعطاك اللّه من الأموال الدار الآخرة فأنفقه فيما يرضاه اللّه لا فى التجبر والبغى. وقرئ: « واتبع » ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾. قال جمهور المفسرين : وهو أن يعمل فى دنياه لآخرته ، ونصيب الإنسان عمره وعمله الصالح . قال الزجاج : معناه : لا تنس أن تعمل لآخرتك ؛ لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذى يعمل به لآخرته . وقال الحسن وقتادة : معناه : لا تضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، وهذا ألصق بمعنى النظم القرآنى ﴿ **وأحسن كما أحسن اللّه إليك** ﴾ أى أحسن إلى عباد اللّه كما أحسن اللّه إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا . وقيل : أطع اللّه واعبده كما أنعم عليك ، ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ؛ أن جبريل سأل رسول اللّه ﷺ عن

الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] . ﴿ **ولا تبغ الفساد فى الأرض** ﴾ أى لا تعمل فيها بمعاصى الله ﴿ **إن الله لا يحب المفسدين** ﴾ فى الأرض .

﴿ **قال إنما أوتيته على علم عندى** ﴾ قال قارون هذه المقالة ردّا على من نصحه بما تقدّم ، أى إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمى ، فقوله : ﴿ **على علم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، و﴿ **عندى** ﴾ إما ظرف لأوتيته ، وإما صلة للعلم . وهذا العلم الذى جعله سببا لما ناله من الدنيا ، قيل : هو علم التوراة . وقيل : علمه بوجوه المكاسب والتجارات . وقيل : معرفة الكنوز والدفائن . وقيل : علم الكيمياء . وقيل : المعنى : إن الله آتانى هذه الكنوز على علم منه باستحقاقى إياها لفضل علمه منى . واختار هذه الزجاج وأنكر ما عداه . ثم ردّ الله عليه قوله هذا فقال : ﴿ **أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعا** ﴾ المراد بالقرون : الأمم الخالية ، ومعنى أكثر جمعا : أكثر منه جمعا للمال ، ولوكان المال أو القوّة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله . وقيل : القوّة : الآلات ، والجمع الأعوان . وهذا الكلام خارج مخرج التقريع والتوبيخ لقارون ؛ لأنه قد قرأ التوراة ، وعلم علم القرون الأولى وإهلاك الله سبحانه لهم ﴿**ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون**﴾ أى لا يسألون سؤال استعتاب ، كما فى قوله : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ [النحل : ٨٤]، ﴿ وما هم من المعتبين ﴾ [فصلت : ٢٤] وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، كما فى قوله : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ [الحجر : ٩٢] . وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين ؛ لأنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون . وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار . وقيل : لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية .

﴿ **فخرج على قومه فى زينته** ﴾ الفاء للعطف على ﴿ **قال** ﴾ وما بينهما اعتراض ، و﴿ **فى زينته** ﴾ متعلق بخرج ، أو بمحذوف هو حال من فاعل خرج ، وقد ذكر المفسرون فى هذه الزينة التى خرج فيها روايات مختلفة ، والمراد : أنه خرج فى زينة انبهر لها من رآها ، ولهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلها كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ **قال الذين يريدون الحياة الدنيا** ﴾ وزينتها ﴿ **يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم** ﴾ أى نصيب وافر من الدنيا . واختلف فى هؤلاء القائلين بهذه المقالة ، فقيل : هم من مؤمنى ذلك الوقت . وقيل : هم قوم من الكفار .

﴿ **وقال الذين أوتوا العلم** ﴾ وهم أحبار بنى إسرائيل قالوا للذين تمنوا : ﴿ **ويلكم ثواب الله خير** ﴾ أى ثواب الله فى الآخرة خير مما تمنونه ﴿ **لمن آمن وعمل صالحا** ﴾ فلا تمنوا عرض

---

(١) أحمد ١/ ٢٧ ومسلم فى الإيمان (٨/ ١) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٨/ ٩٧ ، وابن ماجه فى المقدمة (٦٣) كلهم عن عمر بن الخطاب ، وأحمد ٢/ ٤٢٦ والبخارى فى الإيمان (٥٠) ومسلم فى الإيمان (٩/ ٥) والنسائى ٨/ ١٠١ ـ ١٠٣ وابن ماجه فى المقدمة (٦٤) كلهم عن أبى هريرة .

الدنيا الزائل الذى لا يدوم ﴿ **ولا يلقاها** ﴾ أى هذه الكلمة التى تكلم بها الأحبار . وقيل : الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة . وقيل : إلى الجنة ﴿ **إلا الصابرون** ﴾ على طاعة اللّه والمصبرون أنفسهم عن الشهوات . ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ يقال : خسف المكان يخسف خسوفا : ذهب فى الأرض ، وخسف به الأرض خسفا ، أى غاب به فيها ، والمعنى : أن اللّه سبحانه غيبه وغيب داره فى الأرض ﴿ **فما كان له من فئة ينصرونه من دون اللّه** ﴾ أى ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه ﴿ **وما كان** ﴾ هو فى نفسه ﴿ **من المنتصرين** ﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف .

﴿ **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس** ﴾ أى منذ زمان قريب ﴿ **يقولون ويكأن اللّه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر** ﴾ أى يقول كل واحد منهم متندّما على ما فرط منه من التمنى . قال النحاس : أحسن ما قيل فى هذا ما قاله الخليل وسيبويه ويونس والكسائى: إن القوم تنبهوا فقالوا : وى . والمتندم من العرب يقول فى خلال ندمه : وى . قال الجوهرى : وى : كلمة تعجب ، ويقال : ويك ، وقد تدخل وى على كأن المخففة والمشدّدة ويكأن اللّه . قال الخليل : هى مفصولة تقول : وى ، ثم تبتدئ فيقول : كأن . وقال الفراء : هى كلمة تقرير كقولك : أما ترى صنع اللّه وإحسانه ؟ وقيل: هى كلمة تنبيه بمنزلة ألا . وقال قطرب : إنما هو : ويلك فأسقطت لامه ، ومنه قول عنترة :

ولقد شفا نفسى وأبرأ سقمها قول الفوارس ويك عنتر أقدم

وقال ابن الأعرابى : معنى ويكأن اللّه : أعلم أن اللّه . وقال القتيبى : معناها بلغة حمير : رحمة ، وقيل : هى بمعنى : ألم تر ؟. وروى عن الكسائى أنه قال : هى كلمة تفجع ﴿ **لولا أن من اللّه علينا** ﴾ برحمته وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر والبغى ولم يؤاخذنا بما وقع منا من ذلك التمنى﴿ **لخسف بنا** ﴾ كما خسف به. وقرأ حفص: ﴿ **لخسف** ﴾ مبنيا للفاعل، وقرأ الباقون مبنيا للمفعول ﴿ **ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ أى لا يفوزون بمطلب من مطالبهم . ﴿ **تلك الدار الآخرة** ﴾ أى الجنة، والإشارة إليها لقصد التعظيم لها والتفخيم لشأنها، كأنه قال : تلك التى سمعت بخبرها وبلغك شأنها ﴿ **نجعلها للذين لا يريدون علوّا فى الأرض** ﴾ أى رفعة وتكبرا على المؤمنين ﴿ **ولا فسادا** ﴾ أى عملا بمعاصى اللّه سبحانه فيها، وذكر العلوّ والفساد منكرين فى حيز النفى ؛ يدلّ على شمولهما لكلّ ما يطلق عليه أنه علوّ وأنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص ، أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شىء منه كائنا ما كان ، وأما العلوّ فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير والتطاول على الناس ، وليس منه طلب العلو فى الحقّ والرئاسة فى الدين ولا محبة اللباس الحسن والمركوب الحسن والمنزل الحسن .

﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها** ﴾ وهو أن اللّه يجازيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿**ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾ أى إلا مثل ما كانوا

يعملون فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقد تقدّم بيان معنى هذه الآية فى سورة النمل. ﴿ **إن الذى فرض عليك القرآن** ﴾ قال المفسرون : أى أنزل عليك القرآن . وقال الزجاج : فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن ، وتقدير الكلام : فرض عليك أحكام القرآن وفرائضه ﴿ **لرادّك إلى معاد** ﴾ قال جمهور المفسرين : أى إلى مكة . وقال مجاهد وعكرمة والزهرى والحسن : إن المعنى : لرادّك إلى يوم القيامة . وهو اختيار الزجاج ، يقال : بينى وبينك المعاد ، أى يوم القيامة؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء. وقال أبو مالك وأبو صالح : لرادّك إلى معاد : إلى الجنة. وبه قال أبو سعيد الخدرى ، وروى عن مجاهد . وقيل : ﴿ **إلى معاد** ﴾ : إلى الموت ﴿ **قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين** ﴾ هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبىّ ﷺ : إنك فى ضلال . والمراد: بمن جاء بالهدى ، هو النبىّ ﷺ ، ومن هو فى ضلال مبين : المشركون ، والأولى حمل الآية على العموم ، وأن اللّه سبحانه يعلم حال كلّ طائفة من هاتين الطائفتين ويجازيها بما تستحقه من خير وشر .

﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب** ﴾ أى ما كنت ترجو أنا نرسلك إلى العباد وننزل عليك القرآن . وقيل : ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب بردّك إلى معادك . والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا رحمة من ربك** ﴾ منقطع ، أى لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك ، ويجوز أن يكون متصلا حملا على المعنى ، كأنه قيل : وما ألقى إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك . والأوّل أولى وبه جزم الكسائى والفرّاء ﴿ **فلا تكونن ظهيرا للكافرين** ﴾ أى عونا لهم ، وفيه تعريض بغيره من الأمة. وقيل : المراد: لا تكوننّ ظهيرا لهم بمداراتهم . ﴿ **ولا يصدّنك عن آيات اللّه بعد إذ أنزلت إليك** ﴾ أى لا يصدنك يا محمد الكافرون وأقوالهم وكذبهم وأذاهم عن تلاوة آيات اللّه والعمل بها بعد إذ أنزلها اللّه إليك وفرضت عليك. قرأ الجمهور بفتح الياء وضم الصاد من صده يصده . وقرأ عاصم بضم الياء وكسر الصاد، من أصدّه بمعنى صدّه. ﴿ **وادع إلى ربك** ﴾ أى ادع الناس إلى اللّه وإلى توحيده ، والعمل بفرائضه واجتناب معاصيه ﴿ **ولا تكوننّ من المشركين** ﴾ وفيه تعريض بغيره كما تقدّم ؛ لأنه ﷺ لا يكون من المشركين بحال من الأحوال ، وكذلك قوله : ﴿ **ولا تدع مع اللّه إلها آخر** ﴾ فإنه تعريض لغيره . ثم وحد سبحانه نفسه ووصفها بالبقاء والدوام فقال: ﴿ **لا إله إلا هو كل شىء** ﴾ من الأشياء كائنا ما كان ﴿**هالك إلا وجهه** ﴾ أى إلا ذاته . قال الزجاج : وجهه منصوب على الاستثناء ، ولو كان فى غير القرآن كان مرفوعا بمعنى : كلّ شىء غير وجهه هالك ، كما قال الشاعر :

وكلّ أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

والمعنى : كلّ أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه . ﴿ **له الحكم** ﴾ أى القضاء النافذ يقضى بما شاء ويحكم بما أراد ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ عند البعث ليجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، لا إله غيره سبحانه وتعالى .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سرمدا** ﴾ قال : دائما . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **وضلّ عنهم** ﴾ يوم القيامة ﴿ **ما كانوا يفترون** ﴾ قال : يكذبون فى الدنيا . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى** ﴾ قال : كان ابن عمه وكان يتبع العلم حتى جمع علما فلم يزل فى أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده فقال له موسى : إن اللّه أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى ، فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم ، جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، فتحتملون أن تعطوه أموالكم ؟ فقالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغىّ من بغايا بنى إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها ، فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنه فجر بك ، قالت : نعم، فجاء قارون إلى موسى فقال : اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك ، قال : نعم ، فجمعهم فقالوا له : ما أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا، وأمرنى إذا زنا وقد أحصن أن يرجم ، قالوا : وإن كنت أنت ، قال : نعم ، قالوا: فإنك قد زنيت . قال : أنا ؟ فأرسلوا للمرأة فجاءت ، فقالوا : ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى : أنشدك باللّه إلا ما صدقت . قالت : أما إذ نشدتنى باللّه فإنهم دعونى وجعلوا لى جعلا على أن أقذفك بنفسى، وأنا أشهد أنك برىء وأنك رسول اللّه، فخرّ موسى ساجدا يبكى، فأوحى اللّه إليه ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك ، فرفع رأسه فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى أعقابهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى ، فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، فجعلوا يقولون : ياموسى ياموسى ، فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم ، فجعلوا يقولون: يا موسى ياموسى ، فقال : خذيهم ، فأخذتهم فغشيتهم ، فأوحى اللّه : ياموسى ، سألك عبادى وتضرّعوا إليك فلم تجبهم وعزّتى لو أنهم دعونى لأجبتهم . قال ابن عباس : وذلك قوله : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ خسف به إلى الأرض السفلى [1] .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن خيثمة قال : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع كل مفتاح على خزانة على حدة، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلا أغرّ محجل. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه قال: وجدت فى الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن قارون غراء محجلة لا يزيد مفتاح منها على إصبع لكل مفتاح كنز . قلت : لم أجد فى الإنجيل هذا الذى ذكره خيثمة. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لتنوء بالعصبة** ﴾ قال : تثقل. وأخرج ابن المنذر عنه قال: لا يرفعها العصبة من الرجال أولو القوّة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : العصبة : أربعون رجلا. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **إن اللّه لا يحب الفرحين** ﴾ قال : المرحين ، وفى قوله : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ قال : أن تعمل فيها لآخرتك . وأخرج

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٨٩٢) وصححه الحاكم ٢/٤٠٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

ابن مردويه عن أوس بن أوس الثقفى عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **فخرج على قومه فى زينته** ﴾ فى أربعة آلاف بغل . وقد روى عن جماعة من التابعين أقوال فى بيان ما خرج به على قومه من الزينة ولا يصحّ منها شىء مرفوعا ، بل هى من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرّة ، ولا أدرى كيف إسناد هذا الحديث الذى رفعه ابن مردويه فمن ظفر بكتابه فلينظر فيه. وأخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ قال: خسف به إلى الأرض السفلى.

وأخرج المحاملى ، والديلمى فى مسند الفردوس عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ فى قوله : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض ولا فسادا** ﴾ قال : « التجبر فى الأرض والأخذ بغير الحق » . وروى نحوه عن مسلم البطين وابن جريج وعكرمة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ **لا يريدون علوّا فى الأرض** ﴾ قال : بغيا فى الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : هو الشرف والعلوّ عند ذوى سلطانهم . وأقول: إن كان ذلك للتقوّى به على الحق ، فهو من خصال الخير لا من خصال الشرّ. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب قال : إن الرجل ليحبّ أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه ، فيدخل فى هذه الآية : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا فى الأرض ولا فسادا** ﴾ قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن علىّ رضى اللّه عنه : وهذا محمول على من أحبّ ذلك لا لمجرّد التجمل، فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال: يا رسول اللّه إنى أحبّ أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة، أفمن الكبر ذلك ؟ قال : « لا ، إن اللّه جميل يحب الجمال » [(١)] . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : نزلت هذه الآية ، يعنى : ﴿ **تلك الدار الآخرة** ﴾ إلخ فى أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن مردويه عن عدى بن حاتم قال : لما دخل على النبىّ ﷺ ألقى إليه وسادة ، فجلس على الأرض فقال : أشهد أنك لا تبغى علوّا فى الأرض ولا فسادا فأسلم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، وأخرج أيضا ابن مردويه عن علىّ **بن** الحسين بن واقد أن قوله تعالى : ﴿ **إن الذى فرض عليك القرآن** ﴾ الآية أنزلت على رسول اللّه ﷺ بالجحفة حين خرج النبىّ ﷺ مهاجرا إلى المدينة. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لرادّك إلى معاد** ﴾ قال : إلى مكة [(٢)] . زاد ابن مردويه: كما أخرجك منها . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى: ﴿ **لرادّك إلى معاد** ﴾ قال: الآخرة.

---

(١) مسلم فى الإيمان (١٤٧/٩١) والترمذى فى البر والصلة (١٩٩٩) وقال : «حسن صحيح غريب » كلاهما عن عبد اللّه بن مسعود ، وأخرجه أحمد ١٣٣/٤ عن أبى ريحانة ، وابن كثير ٣٠٣/٥ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٧٣) والنسائى فى التفسير (٤٠٦) وابن جرير ٨٠/٢٠ .

وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى فى تاريخه ، وأبو يعلى وابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لرادّك إلى معاد** ﴾ قال : معاده : الجنة ، وفى لفظ : معاده: آخرته[1]. وأخرج الحاكم فى التاريخ ، والديلمى عن علىّ بن أبى طالب قال : ﴿ **لرادّك إلى معاد** ﴾ : الجنة. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : لما نزلت : ﴿ كلّ من عليها فان ﴾ [الرحمن : ٢٦] قالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، فلما نزلت : ﴿ كلّ نفس ذائقة الموت ﴾ [آل عمران : ١٨٥] قالت الملائكة : هلك كلّ نفس ، فلما نزلت : ﴿ **كلّ شىء هالك إلا وجهه** ﴾ قالت الملائكة : هلك أهل السماء والأرض . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿ **كلّ شىء هالك إلا وجهه** ﴾ قال : إلا ما أريد به وجهه .

(١) البخارى فى التاريخ ١/ ٢٨٠ وأبو يعلى (١١٣١) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٩١ : « رجاله ثقات » .

obeikandl.com